حديث القرآن والتاريخ

عن غوروش

لنا أن نقول الآن أن مسألة لقب " ذى القرنين " قد حلت نهائيا ، وليس ثمة ريب فى أن تصور ذى القرنين لغوروش كان قد وجد ، وان غضضنا النظر عن الشهادات الصريحة التى يشهد بها العهد العتيق ، فان تمثال غوروش نفسه لشهادة حسية ملموسة على صحة ما نقول • وبقى الآن أن نرى هل الحلة التى فصلها له القرآن توافقه أم لا ؟ وسنرى أنها توافقه كل الموافقة •

وقد سبق لنا فى بدء المقال أن أتينا على خلاصة ما قاله القرآن فى شأن ذى القرنين ، ويحسن بنا أن نعيد النظر اليها مرة أخرى •

انا مكنا له فى الأرض :

١ — ان أول ما وصف به القرآن ذا القرنين هو قوله " انا مكنا له فى الأرض وآتيناه من كل شئ سببا " (٨٤) • أى أننا منحناه السلطان والتثبت فى الملك وهيأنا له جميع الوسائل والمعدات التى كان يحتاج اليها لتدعيم حكمه واتمام فتوحه ومن أسلوب القرآن انه كلما ينسب نجاح شخص وسلطانه الى الله مباشرة — كما نراه فى هذه الآية — يريد بذلك أمرا عظيما قد وقع على خلاف المعهود ولذلك صار هبة من الله ورحمة خاصة من لدنه • فمثلا نرى فى سورة يوسف

أنه يقول " وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض " (١٢ : ٥٦) ، أى جعلنا يوسف متمكنا فى أرض مصر وذلك لأن يوسف عليه السلام وصل الى حكم مصر بطريقة عجيبة غير معهودة ، ولذلك نسب الى الله ، ليبين أنه كان من نعم الله الخصوصية عليه أن أخرجه من السجن وأجلسه على عرش البلاد . ولما كان أسلوب الكلام عن ذى القرنين نفس هذا الاسلوب كان لزاما أن يكون وصول ذى القرنين كذلك الى مقام الملك والسلطان فى ظروف غير عادية فيكون منحة خصوصية من عند الله .

واذا نظرنا من هذه الناحية الى غوروش ، نجد كأن صورا صور ذى القرنين صورة مطابقة للأصل تماما ، فقد بدأ حياته فى ظروف أحاطت بها الحوادث المحيرة للعقول ، حتى سبكتها فى قالب اسطورة : انه لم يولد بعد الا أن والد أمه أصبح عدوا لدودا له ، يريد الفتك به ولكن الرجل الذى انتدبه لقتله ، امتلأ قلبه عطفا وحنانا عليه ، فاختطفه من براثن الموت . ثم انه ينشأ فى الغابات والصحارى والجبال ، ويعيش عيشة الرعاة السهليين المجهولين فبينما هو كذلك اذ تتغير الأحوال بغتة ، وتقوده الى ساحات الجد والعمل ، مشمرا عن ساعديه فيخلو له عرش ماد! بدون مزاحمة ! لاريب أن سير الحوادث الحياة العادية لا يكون هكذا . انه حقا أمر فذ ، نادر ، عجيب !

وآتيناه من كل شىء سببا :

ثم قال " وآتيناه من كل شىء سببا " أى وهيناه كل الوسائل للعمل والنجاح .

انظر كيف تطابق هذه الكلمات من الاية الأمر الواقع ؟ ان الشاب الذى كان بالأمس راعيا مجهولا ، قد استوى اليوم على عرش الملك ، وملك جميع ما يحتاج اليه من وسائل العمل بدون حرب ونضال ! يقول مؤرخو اليونان ان جميع قبائل فارس قد اتفقت على طاعته من تلقاء نفسها ، وظهرت فى التاريخ أول مرة المملكة الفارسية المتحدة . ثم احتشدت له جيوش عظيمة لم تملكها مملكة من قبل .

المهمة الأولى الغربيــة :

٢ ـ ثم ذكر القرآن لذى القرنين ثلاث مهمات ،

كانت الاولى منها الى " مغرب الشمس " والغرض الواضح من " مغرب الشمس" الجهة التى نرى الشمس تغرب نحوها ، أى جهة الغرب ، وليس معنى ذلك مكان غروب الشمس الحقيقة ، اذ لا يوجد ولا يمكن أن يوجد مكان كهذا . وان كل اللغات لتعبر عن الغرب والشرق بـ " مغرب الشمس " وبـ " مطلع الشمس " ونجد فى العهد العتيق كذلك تعبيرات كهذه ، فنقرأ مثلا فى صحيفة زكريا " يقول رب الجموع انى أنجى شعبى من البلد الذى تطلع منه الشمس ، ومن البلد الذى تغرب فيه الشمس " (٨ : ٧) ، أى أنجى بنى اسرائيل من مصر وبابل ، اذ مصر لفلسطين بلاد المغرب ، وبابل بلاد المشرق . هذا أمر واضح لا يحتاج الى البحث ، الا أن أمرا جليا كهذا أصبح معقدا لولع المفسرين بالعجائب ، فتوهموا أن ذا القرنين وصل الى المكان الذى تغرب فيه الشمس حقيقة !

والحاصل أن مهمته الاولى كانت الى الغرب ، ولا ريب أنها كانت مهمة ليديا ، لأنك ان مشيت من ايران الشمالية الى آسيا الصغرى ، تكون قد مشيت نحو الغرب تماما .

وقد رأيت آنفا أن غوروش ما كاد يضع تاج فارس ومادا على رأسه ، حتى فاجأه

ملك آسيا الصغرى ، كروسس ، بالجهوم وقد تكونت مملكة آسيا الصغرى التي عرفت باسم ليديا ، في القرن السابق للحوادث التي نحن بصددها ، وكانت عاصمتها مدينة ساردیز ( ) • ولقد سبقت حروب بين مادا وليديا قبل ارتقاء غوروش العرش ، وأخيرا صالح والد كروسس ، جد غوروش ، استياغس ، ولأجل تصميم الاتحاد ، تصاهرت الأسرتان المالكتان ، ولكن كروسس داس كل هذه الملاقات والقرابات حين كبر عليه أن تنشأ امبراطورية عظيمة باتحاد فارس ومادا تحت زعامة غوروش الناجحة ، فحرض أولا حكومات بابل ، ومصر واسبارتا عليه ، ثم استولى باغارة فجائية على بلدة بتريا ( ) الواقعة على الحدود •

فاضطر غوروش الى رد سيف المهاجم الى نحره ، فخرج من عاصمة مادا ، همغ متانا (همدان) وانقض كالصاعقة على خصمه ، ولم يطل النضال ، بل سقطت مملكة ليديا كلها ساجدة أمام قدميه بعد موقعتين : بتريا وسارديز !

وقد أتى هيرودتس على تفاصيل هذه الحروب ، وهي ممتعة ، فقال ، كان انتصار غوروش سريعا جدا لم يتوقعه أحد ، فما مضت على معركة بتريا أربعة عشر يوما الا وخضعت عاصمة ليديا المنيعة ، ووقف ملكها ، كروسس ، أسيرا بين يدي الفاتح ! فأصبحت آسيا الصغرى كلها من بحر الشام الى البحر الأسود خاضعة لغوروش ، ولكنه مازال يتقدم ويتوغل ، حتى بلغ آخر المغرب ، أي الى ساحل البحر• وهنا ـ طبعا ـ وقفت أقدامه ، كما وقفت بعد اثني عشر قرنا أقدام موسى بن نصير على الساحل الشمالي من افريقية •

واجتاز غوروش من همغ متانا الى ليديا ألفا وأربعمائة ميل وكان لا يقدر على المشي فوق أمواج البحر ، فوقف ، فاذا هو يرى الشمس تغرب في عين الخليج الساحلي • وكان له هذا المقام بلا ريب مغرب الشمس أي نهاية المغرب •

وجدها تغرب في عين حمئة ووجد عندها قوما :

لنفتح خريطة الساحل الغربي لآسيا الصغرى أمامنا ، نرى فيها معظم الساحل قد تقطع في خلج صغيرة ، لاسيما على مقربة من أزمير ، حيث اتخذ الخليج صورة عين ، كانت ساردبز على مقربة من الساحل الغربي ، ولا تبعد كثيرا من أزمير الحاضرة ، فلنا أن نقول أن غوروش لما تقدم بعد استيلائه على ساردبز ، وصل من ساحل بحر ايجه الى مكان قريب من أزمير ، ورأى الساحل قد اتخذ صورة تشبه العين ، وكان الماء قد انكدر من وحل الساحل ، فرأى الشمس تغرب مساء في هذا العين ، هذا هو ما عبر عنه القرآن بقوله " وجدها تغرب في عين حمئة " أي انه تراءى له كأن الشمس تغرب في بقعة كدرة من الماء .

ومن المعلوم أن الشمس لا تغرب في مكان ما ولكنك ان وقفت على ساحل بحرى ، لرأيت الشمس كأنها تغرب رويدا رويدا في البحر .

المهمة الشرقيـــــة :

٢ ــ وكانت مهمته الثانية الى مشرق الشمس ، أي في جهة الشرق ، فهيرودتس وتى سياز كلاهما يذكران هذه المهمة الشرقية التي قام بها غوروش بعد فتحه لبديا ، وقبل استيلائه على بابل ، فقالا " ان طغيان بعض القبائل الهمجية الصحراوية حمله على القيام بهذه المهمة " .

وهذا يطابق ما قاله القرآن " حتى اذا بلغ مطلع الشمس ، وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها سترا " أي أنه لما وصل الى نهاية الشرق ، رأى الشمس تطلع على قوم ليس لديهم ما يستترون به عن قيظها ، بمعنى أنهم كانوا من القبائل الرحالة التي لا تسكن المدن ولا تبنى لهما البيوت .

٤٧

قبائل الشرق الرحالة :

من كانت هذه القبائل الرحالة ؟ يظهر من بعض ما صرح به مؤرخو اليونان أنها كانت قبائل بكتريا ، أى بلخ . ولو نظرنا فى الخريطة لوجدنا " بلخ " بمثابة الشرق الأقصى لايران ، لأن الأرض بعدها ترتفع وتسد الطريق . والظاهر أن قبائل فدوسيا كانت أخذت تسعى فى الفساد على حدوده الشرقية ، فقام من مكانه حتى وصل بلخ فاتحا . والمقصود من فدروسيا ، البلاد التى تسمى الآن بمكران وبلوخستان .

المهمة الثالثة الشمالية وسد يأجوج ومأجوج :

٤ ـ وقام بهجوم ثالث على بلاد جبلية كانت تغير عليها من ورائها يأجوج ومأجوج وهنالك بنى السد . كانت هذه مهمته الثالثة ، وصل بها ، تاركا على يمينه بحر الخزر ، الى جبال القوقاز (   ) حيث وجد مضيقا بين جبلين منهما .

ذكر القرآن هذا الخبر قائلا " حتى اذا بلغ بين السدين ، وجد من دونهما قوما لا يكادون يفقهون قولا " ، أى أنهم كانوا جبليين متوحشين ، حرموا من المدنية والعقل والفهم .

والمقصود بسدين ، مضيق فى جبال القوقاز . وانك تجد على يمين القوقاز بحر الخزر الذى يسد طريق الحافة الشرقية منها ، وعلى اليسار البحر الأسود الذى يسد طريق الحافة الغربية ، وترى فى الوسط سلسلة جبالها الشاهقة التى صارت جدارا طبيعيا ، فلم يكن هنالك منفذ للمهاجمين من الشمال الا مضيق وسطى فى هذه الجبال ، يجتازه المهاجمون ويشنون الغارات على البلاد الواقعة وراءه . فبنى قوروش فى هذا المضيق سدا حديديا ، وأقفل به الطريق على المغيرين ، ولم يأمن أهل سهول قوقاز وحدهم بهذا السد بل أصبح السد بابا مقفلا منيعا لسلامة سائر بلاد آسيا الغربية ، فأمنت جميع الشعوب القاطنة فى آسيا الغربية وفى مصر من جهة الشمال .

انظر الخريطة ، تجد آسيا الغربية تحتها ، وبحر الخزر فوقها ، والبحر الأسود على يمينها ، وقد سدت جبال القوقاز ما بين البحرين ، فهذان البحران وسلسلة جبال القوقاز ، أوجدت سدا طبيعيا يمتد الى مئات الأميال ، ولم يكن هناك خلل في هذا الجدار الهائل ، ينفذ منه شعوب الشمال الا ذلك المضيق ، فعمد غوروش اليه وقفله ببناء سد حديدي لا يتسلق عليه ولا ينقب فيه ، فكان السد بمثابة باب قد أحكم أقفاله بين آسيا الغربية والبلاد الشمالية .

أما القوم الذين وجدهم ذو القرنين هنالك ، وكانوا خلوا من العقل ، فيحتمل أن يكونوا القوم الذين ذكرهم اليونان باسم " كولش " وذكروا في لوحة داريوش باسم " كوشيا " . هؤلاء الذين شكوا الى غوروش هجمات يأجوج ومأجوج ، ولما كانوا مجردين من الحضارة وصفهم القرآن بقوله " لا يكادون يفقهون قولا " أي لا يفهمون الكلام .

أوصاف ذي القرنين الأخلاقية في القرآن :

٥ - والآن تأتي أمامنا أوصاف ذي القرنين الأخلاقية التي ذكرها القرآن ، فأولها عدله وحبه لرعيته . لنرى الى أي حد ينطبق هذا الوصف على حياة غوروش ؟

يخبر القرآن أن الله قال له في شأن الذين وجدهم في الغرب : " اما أن تعذبهم واما أن تتخذ فيهم حسنا " . أي أصبح هؤلاء في قبضة يدك فلك أن تعاقبهم أو تعاملهم بالحسنى .

لاشك في أن هؤلاء كانوا الشعب اليوناني في ليديا . هاجمه ملكهم كروسس ، بدون حق ناسيا العهود والقرابات ، ولم يكتف بهجومه ، بل حرض عليه جميع الدول القوية المعاصرة . والآن بعد أن خاب سعيه ، وعاد كيده في نحره ، كان لغوروش أن يعاقبه على سوء عمله . ولو فعل ذلك

لما عوتب فيه ، لأنه كان له الحق في ذلك • هذا هو الأمر الذي عبر عنه القرآن بقوله : " اما أن تعذبهم واما أن تتخذ فيهم حسنا " •

فماذا فعل ذو القرنين ؟ انه قال : بل أعاملهم بالحق ، لأني لست من الذين يميلون الى الظلم ، " أما من ظلم فسوف نعذبه ثم يرد الى ربه فيعذبه عذابا نكرا ، وأما من آمن وعمل صالحا فله جزاء الحسنى ، وسنقول له من أمرنا يسرا " (٨٧،٨٨) ، أي لا أعاقبهم على ما سبق لهم من الشر ، بل أعفو عنهم • أجل • من يأت بمنكر بعد هذا فسينال جزاء عمله ، ثم يرد الى الله ليعاقبه بما هو أشد وأدهى ، وأما من يعمل الخير ويطع أمري ، فأجزيه بالحسنى • هذا هو اجمال ما نقله مؤرخو اليونان من سيرة الرجل ، وقد قبله مؤرخو العصر الحاضر كحقيقة تاريخية لا مراء فيها (١) •

وقد اتفقت كلمة مؤرخي اليونان على أن ما فعله غوروش بعد فتحه ليديا لم يكن العدل الصراح فحسب ، بل كان أكثر من ذلك • كان كله سماحة ومرحمة وكرما ونبلا • فلو عاقب أعداءه ، لكان ذلك عدلا لأنهم كانوا جناة مجرمين ولكنه لم يقف عند حدود العدل ، بل صعد الى المقام الأعلى من الانسانية الفاضلة •

يقول هيرودوتس ، أمر غوروش جنوده بأن لا يرفعوا السلاح على أحد غير المحاربين من الأعداء ومن يخفض رمحه منهم فلا يقتلوه • أما كروسس ، الملك المنهزم ، فأمر في شأنه أن لا يؤذيه أحد ، حتى ولو هاجمه بسلاحه • وقد أطاع الجيش أمره طاعة تامة ، حتى لم يشعر عامة الأهالي بويلات الحرب غير

الملك والسلطان ، ولم تتغير حالة الأهالى .

وهنا يجب أن لا ننسى بأن انتصار غوروش كان هزيمة منكرة لآلهة اليونان ، لانها لم تقدر على صون عابدها الخاص ، كروسس من المحنة الكبرى .

قال المؤرخون ، استخار كروسس الآلهة ، قبل اقدامه على الهجوم ، وان هاتف " دلفى " قد بشره بالفتح المبين ، ولما انعكست الآية وانكسر كروسس ، استاء اليونانيون ، فأخذوا يؤولون ويحاولون أن يجعلوا من هذه الهزيمة الشنيعة فتحا دينيا لآلهتهم . فقد روى هيرودوتس ما قاله الناس فى ليديا بعد اندحار ملكهم فزعموا أن هاتف دلفى لم يخطئ وانما أخطأ كروسس فى فهم جوابه لتحمسه الحربى . لأن الهاتف كان قد قال له " ان هاجم كروسس الفرق ، فيدمر مملكة عظيمة " أى أنه يقضى بهجومه على مملكته العظيمة نفسها ، ولكنه أساء الفهم ، فظن أن الهاتف بشره بانهيار المملكة الفارسية .

وكذلك زعموا أن غوروش لما أمر باحراق كروسس فوق مصطبة الحطب ، تذكر كروسس ، وهو فوق المصطبة المشتعلة بالنار قول فيلسوف يونانى له فأخذ يبتسم وقد أخبروا غوروش بذلك فتأثر به أيما تأثر وأمر باطفاء النار حالا ، ولكن النار كانت قد تأججت وعجز رجال الملك عن اطفائها ، فنادى عند ذلك كروسس الاله " أبولو " وعلى رغم أنه لم يكن على السماء غيوم ، فقد أخذ المطر ينهمر ، فانطفأت النار فى لمحة من البصر ، وأنقذ الاله حياة كروسس بعد أن عجز عنه كل البشر !!

هذه هى مزاعم القوم ، ولكنا حين نرجع الى ما صرح به هيرودوتس وزينوفون نعلم الحقيقة . فقد قام كروسس بهجومه بعد أن تقوى قلبه ببشارة آلهة اليونان وقد اشتهرت البشارة قبل بدء الحرب ، فأراد غوروش أن يبطل ما اعتقده القوم ،

ويريهم أن الذين اتخذوهم آلهة ، لا يستطيعون لهم نصرا ، حتى أنهم لا يقدرون على انقاذ من أحبوه وشروه بالفتح من الاحتراق وهو حى ، ولذلك أمر غوروش أولا أن يقعدوه على مصطبة الحطب ، ويشعلوا النار فيها ، ليرى الناس بأعينهم أن آلهتهم لا قدرة لها ، وأنه ليست هنالك معجزة تنقذ ملكهم من النار ، بل مصير رمادا تذروه الرياح . فلما تجلت هذه الحقيقة للعيان ، أطفئت النار بأمر الملك ونجا خصمه المكسور من الهلاك . وأن معجزة " ابولو " المزعومة فى أسطورة اليونان لتشير صراحة الى الحقيقة التى أراد غوروش اثباتها بعمله ، ولذلك حاول القوم نقضها باختراع هذه المعجزة الواهية الكاذبة .

وجاء فى القرآن أن ذا القرنين قال : " وسنقول له من أمرنا يسرا " . أى ان أحسن القوم ، فسيرون انه ليس فى معاملتى ما يشق عليهم أو يسوءهم . وقد شهد مؤرخو اليونان بأن معاملته كانت كما ذكره القرآن ، فقد كان هو للبلاد المغلوبة كله عطفا ورحمة . وقد نجاهم من كل ما كانوا يئنون تحته من الخراج الثقيل ، والضرائب الباهظة التى كان الملوك فى ذلك العصر يفرضونها على الرعية . وقد فتح يسر أوامر غوروش ورحمة قوانينه دورا جديدا للرخاء ورغد العيش للناس قاطبة .

خصائص غوروش العامة :

٦ ـ هذه كانت معاملته فى مهمته الغربية . أما كيف كانت عاداته وخصائله ؟ وماذا شهد به مؤرخو اليونان فى شأنها ؟ والى أى مدى تطابق هى ما ذكره القرآن عنها ؟

لا ينبغــــى لنا أن ننسى الأمر الواقع ، وهو أن المؤرخين الثلاثة الذين كتبـوا عن غوروش ، لم يكونوا من قومه ، ولا من أبناء وطنه ودينه ، بل كانوا من اليونـــان ليس هذا فحسب بل لم يكونوا من أصدقائه ومحبيه ، فقد هزم غوروش ليديا وهزيمة ليديا كانت فى الحقيقة هزيمة لقومية اليونان ، والحضارة اليونانية ، ولدين اليونـان . ثم خلفه داريوش وأردشير ، فأغارا على بلاد اليونان نفسها . وهكذا تولد العـداء بين الشعبين وتمكن .

ثم ان هؤلاء المؤرخين الثلاثة ألفوا كتبهم فى عصر أردشير أو بعده ، أى فـى العصر الذى اشتعلت عواطف اليونان القومية فيه الى آخر حد ، وأخذ شعــــراء اليونان يكتبون أشد التمثيلات العدائية ضد الفرس ، وهى موجودة الى يومنا هذا . فما كان ينتظر فى مثل هذه الظروف العدائية من رجل يونانى أن يغنى بأناشيـد المدح لعدو شعبه اللدود ، ويطلق العنان لقلمه فيجرى بالثناء عليه . ومع كـــل ذلك نرى كل واحد من المؤرخين الثلاثة يعترف بعظمة غوروش الخارقة للعـــــادة وبفضائله الأخلاقية الفذة .

وهذا دليل قاطع على أن محاسن غوروش كانت قد اشتهرت اشتهارا ما كــان يسع أحدا معه أن ينكرها أو يمارى فيها ، حتى ولو كان من أكبر أعدائه فقـــد شهدت بها الأعداء كالأصدقاء على سواء . ولله در من قال :

ومليحة شهدت لها ضراتهــا والفضل ما شهدت به الأعداء

ويقول هيرودوتس " كان (غوروش) ملكا كريما ، جوادا سمحا للغاية . لـــم يكن حريصا على جمع المال كغيره من الملوك ، بل كان حرصه على الكرم والعطـــاء . يبذل العدل للمظلومين ، ويحب كل ما فيه خير البشر " .

ويقول زينوفن " كان ملكا عاقلا ، رحيما . اجتمعت فيه مع نبل الملوك فضائـــل الحكماء . همته تفوق عظمته ، وجوده يغلب جلالته ، خدمة الانسانية شعــــاره ،"

وبذل العدل للمظلومين ديدنه . حل فيه - مثال الكبر والعجب - التواضع والسماحة"

بروز شخصية غوروش :

٧ - وأظهر ما نجد فى صفحات هؤلاء المؤرخين ، هو رفعة شخصية غوروش الفسذة فقد اجمعوا على أنه لم يكن من نبت عصره، بل شخصا فذا ، كأنه سبق خلق عصـره لم يعلمه معلم ، ولم يربه حكيم ، ولم ينشأ فى بلد متحضر ، وانما كان ربيب الفطرة، وصنيع أيدى الحكمة الأزلية ، مضت الأيام الأولى من حياته فى حجر الصحارى وكنـف الجبال . كان من رعاة الصحارى الشرقية من فارس فواعجبا ! لما برز هذا الراعـى أمام أعين العالم ، كان أكبر مظهر للحكم ، وأعظم شخصية للحكمة والفضيلة !

لقد نشأ الأسكندر الأكبر على يد أرسطاطاليس ، ولاريب أنه كان فاتحا عظيمـا ، ولكن هل فتح زاوية من زوايا الانسانية والأخلاق ؟ لم يوجد لغوروش أرسطاطاليـس يعلمه ، بل انه عوضا من المدارس البشرية ، نشأ فى مدرسة الفطرة ومع ذلك لم يكتف بتسخير البلاد كالاسكندر ، بل سخر مملكة الانسانية والفضيلة كذلك .

ان عمر فتوح الاسكندر لم يتجاوز عمر الاسكندر نفسه ، ولكن المعاقل التى شيدتها فتوح غوروش ، صارعت حوادث الدهر الغلابة قرنين كاملين دون أن يصيبها تلـف . ان الاسكندر لم يلفظ أنفاسه الأخيرة ، حتى تقطعت أوصال مملكته المفتوحة ، ولكـن غوروش عندما انتقل من الدنيا ، كانت مملكته مستعدة للتوسع والتمكن . لم يكن ينقص فتوحه الا مصر ، فأتم النقص ولده ، باستيلائه على مصر الخالدة ، وبرزت بعد بضـع سنين تلك الامبراطورية العالمية التى لم ير العالم المتحقق مثلها قط ، فبسطـت سلطانها على ثمانية وعشرين قطرا من قارتى آسيا وأوربا ، وكذلك على مصر وكان علـى عرشها خلف غوروش ، يحكمها وحده بلا منازع !

كانت فتوح الاسكندر ، فتوحا مادية ، بينما فتوح غوروش شملت الجسد والروح معا . تولع الأولى رأسها ، فلا تقدر على البقاء ، بينما تبقى الأخرى غير متزحزحة !

اعتراف المؤرخين المصريين :

وقد اعترف بهذه الحقيقة محققوا التاريخ فى العصر الحاضر . فهذا المستر غرندى (GBEYundy) أستاذ جامعة اكسفورد ، والاختصاصى الثقة فى التاريخ القديم ، والذى ناله تأليفه " الحرب الفارسية الكبرى " قبولا عاما ، يقول فى مقال له :

" لقد كان نجاحه ، نجاحا عالميا . كان قبل اثنتى عشرة سنة أميرا مجهولا لامارة مجهولة وهى " انشان " فاذا بنا نراه قد خضعت له جميع تلك البلاد التى كانت مراكز العظمة للشعوب الكبيرة السابقة . فهذه البلاد التى ادعت ملكية الأرض فى أيامها لم يعد أحد منها يتجرأ الآن على ادعاء الزعامة لنفسه ، فمن بلاد ساراغون ، الملك الأساطيرى للمملكة الأكاديمية الى بلاد بخت نصر ، امبراطور بابل ، سجدت كلها لهيبتنا الامبراطور الفاضل الجديد " .

" انه لم يكن فاتحا عالميا ، بل حاكما كبيرا كذلك . وان الشعوب لم تقبل الدور الجديد فقط ، بل رحبت به أيضا . ففى السنين العشرة الأخيرة من حياته بعد فتح بابل ، لم تحدث ولا ثورة واحدة فى مملكته الواسعة . أجل كانت رعيته تهابه ، ولكن لا تخشى قسوته ، اذ حكومته لم تعرف عقاب القتل والسلب والنهب ، ولم يكن المذنبون يجلدون ، ولا تصدر الأوامر بالمذابح العامة ، ولا تخاف الشعوب الجلاء من الأوطان ، بل كان الأمن والسلام يشمل الجميع ، وترفرف الطمأنينة والرفاهية على الكل . لقد محيت آثار مظالم الملوك الآشوريين والبابليين ، وارجعت الشعوب المنفية الى أوطانها ، وأعيدت اليها آلهتها ومعابدها ، لم يبق اعتساف ضد العوائد والعبادات القديمة "

" بذل العدل لسائر الشعوب ، ومنح الحرية التامة لجميع الأديان والمذاهب

(١)
وقد حل محل الخوف العام السابق ، عدل عام ، وسماحة كريمة ، ومساواة تامـــــة"

أرأيت كيف يشرح ويفصل قصاص اليوم ما أجمله القرآن الكريم فى كلمات وجـــــيزة من فضائل الرجل وخصائله الحميدة !

---

١ ـ راجع أيضا كتاب تاريخ العالم لهمرتن ، ج ٢ ص ١٠٨٥ :

((٥))

" معتقدات ذى القرنين المذكورة فى القرآن وغوروش "

وآخر وأهم ما يلفت نظرنا اليه من أوصاف ذى القرنين ، هو اخلاصه العبادة لله وحده ، وايمانه بالحياة الآخرة . وقد مر بنا ما ذكره القرآن منه ، فلننظر الآن هل كان غوروش كما وصف به ذو القرنين ؟

أجل تدل القرائن والشواهد كلها على ذلك .

فأول ما يواجهنا من الأمر ، هو عقيدة اليهود القومية فى المسألة .

صرحت صحف اليهود الدينية عن غوروش بأنه كان موعودا من الله ومسيحه بعثه الله لينفذ مشيئته ويتم مرضاته .

ومن المعلوم أن اليهود ماكانوا ليعتقدوا ذلك فى شأن رجل وثنى لا يوحد الله ، فلابد من أن يكون غوروش ممن يوحد الله ويؤمن به .

ولا يخفى أن عصبية اليهود الجنسية كانت شديدة جدا ضد الأجانب غير الاسرائيليين ، فما كان أشد على عصبيتهم القومية من أن يعترفوا لأجنبى بكرامة وشرف ، وقد شعرتم هذه العصبية نفسها فى بدء الاسلام من الاعتراف بنبى الاسلام صلى الله عليه وسلم ، فكان يقول بعضهم لبعض ، " ولا تؤمنوا الا لمن تبع دينكم " (٣ : ٧٣) ولكنهم على رغم ذلك خفضوا جناحهم لفضائل غوروش الذى كان أجنبيا عنهم من كل الوجوه ، ولم يكتفوا بالاعتراف بكرامته ، بل حسبوه موعودا به على لسان الأنبياء وصفى الله ، فهذا الأمر الواقع يحملنا على البت بأنه كان فى دين غوروش ما استحسنه اليهود ، وهو الذى حملهم على الاعتراف بفضله رغم عصبيتهم ضد الأجانب .

ومن البديهي أن يحمد الانسان من أحسن اليه ويحترمه ، فما كان عجيبا من اليهود أن يغنوا بعظمة الملك الذى نجاهم من الأسر والذل ، غير مبالين بدينه ، ولكن الذى ما كان ينتظر منهم ، أن يقولوا عن ذلك الملك بأنه مرسل من عند رب اسرائيل وأنه من أصفيائه وأوليائه .

" مزديسنا " أى الدين الزردشتي :

لنرى الآن ما عندنا من المعلومات من معتقدات كوروش الدينية ؟

اذا نظرنا الى الشواهد التاريخية ، نكاد نقطع بأن كوروش كان يدين بديــن مزديسنا ، أى انه كان يتبع الدين الذى جاء به زردشت الشهير (١) .

متى وأين ظهر زردشت ؟ لا نعلم حق العلم ، وقد ذكر مؤرخو اليونان فى القرن الثالث والثانى قبل الميلاد ما كان شائعا فى عصرهم عن زمنه ، فقالوا ، مضت عليه ألوف السنين . ولا يخفى أن اطلاق القول بالقدم كهذا لا يكون الا اذا بعد العهد

---

١ ـ الاسم الصحيح لاسم زردشت فى اللغة البهلوية " زاراتهشترا " حرفه اليونان فقالوا : " زارا سترو " والحروف الأخيرة للاسماء البهلوية كالسنسكرتية مهموزة دائما ، أى تنطق مفتوحــة تقريبا ، ولاظهار هذه الحالة النصبية ، يكتبون الألف فى اللاتينية الحاضرة ، وعلى ذلــك ينطق الألف الأخير من " زاراتهشترا " بصوت يشبه النصب . وتتبدل تاء الكلمات البهلوية القديمة فى بهلوية العصر الساسانى ، بالدال ، فمثلا " يزتا " الذى ذكر فى أوستــا أصبح فى البهلوية الساسانية " يزدا " ثم حرفوه فقالوا " يزدان " وكذلك " امرتات " كان اسما لملك من الملائكة ، واسما لشهر فارسى كذلك ، تغير فى البهلوية الساسانيــة فأصبح " امرداد " وهذا هو ما وقع لاسم مؤسس الدين الفارسى ، فصار زاراتهشتــرا " زارادهشترا " ثم صار بكثرة الاستعمال " زردهشت " فقال الدقيقى : متى خسرون رند وكيش زردهشتى . وجاء فى شاه نامه :

خجسته بئى نام او زردهشت — كه أهريمن بدكنش رابكشت

وحرف العرب " زردهشت " هذا بدورهم فقالوا : زرتشت أو زردشت .

وضعت عليه الف أو أكثر من السنين ، ولكن علماء العصر الحاضر يرون أن القـــول مبالغ فيه ، فلا يتصور لزردشت مثل هذا القدم . وقال الاستاذ جلدنر (Geldner) ان زمن زردشت لا يتجاوز ستة قرون قبل الميلاد ، وقد قبل العلماء رأيه هـــذا ، فان كان الأمر كما ذكر ، فيكون زردشت وغوروش قد عاشا في عصر واحد .

أما مكان ظهوره ، فترجح عند العلماء أنه ظهر في ايران الشمالية ، نسمـــى بها آزربيجان (١) (آتر پاتكان) بالكاف الفارسية) التى سميت في الجزء المسمـــى ب " وندى " من أوستا بكلمة " ايريانا ويجو " (٢) أى أرض ايريانا الطاهرة . وقـــال گلدنر ان سلمنا برواية شاهنامة ، فيكون المقصود بغشتاسب (٣) ذلك الرجل الـــذى كان والدا لداراپوش على رواية مؤرخى اليونان . وسواء ظهر زردشت في زمن غـــوروش أو تقدمه بقليل ، فليس هنالك ما يحملنا على الريب في أن غوروش كان من متحمســـى الدين الزردشتى .

أجل ، ليس عندنا من الشواهد التاريخية المباشرة ما يؤيدنا فيما قلناه ، ولكنا اذا نظرنا في القرائن التى تركتها لنا النصوص التاريخية ، فلا مناص من الوصـــول الى ما وصلنا اليه .

---

١ ـ " آتر " في اللغة البهلوية القديمة معناه النار . وقد حرفت الكلمة فصارت " آزر " ثم " آذر " وعلى ذلك " آترپاتكان " معناه بستان النار ، وذلك لأنه توجد بهذه الأرض ينابيع الغاز ، والتراب في بعض الأماكن يغلب عليه الزيت ، حتى اذا اقتربت منه النـــار اشتعلت ، فلا عجب أن سميت هذه البلاد بهذا الاسم .

٢ ـ قرأت هذه الكلمة في قراءة اسپيغل " ويج " لا " ويجو " في الآية الثانية من وندايـــداو فرغوذ الأول " يقول أهورا مزدا ، ان أول ملك خلقته هو ايريانا ويج " وقد ذكر هو في الآية الحادية والعشرين من هرمزد يشت مع الصلاة عليه .

٣ ـ حرف اليونان اسم غشتاسب فقالوا " هوستازپز " (   ) وهو في البهلويـــة القديمة " وستاسپ " .

لنتدبر فى حادثين تاريخيين لاشك فيهما وهو ثورة "غوموتا" التى نشبت بعد وفاة غوروش بثماني سنين ، وكتابات داريوش على الصخور التى تلقى الضوء على معتقداته الدينية .

لقد أجمع المؤرخون على أن غوروش توفى سنة ٥٢٩ ق . م . وخلفه ولده ، كمبوشيه ("كم بى سيز" فى اليونانية) الذى استولى على مصر فى سنة ٥٢٥ ق . م . ثم علم ، وهو بمصر أن ثورة نشبت فى مادا ، قام بها رجل يسمى "غوموتا" زاعما بأنه الولد الثانى لغوروش الذى كان يسمى "برديه" (سمرديز) فى اليونانية وكان قد توفى من قبل ، فرجع كمبوشيه من مصر ، الا أنه مات فى طريقه بالشام . ولما كان نسل غوروش قد انقطع بوفاة كمبوشيه ، فقد ارتقى العرش ابن عمه ، داريوش فقضى على الثورة وقتل زعيمها . وكذلك أجمع المؤرخون على أن داريوش ، ارتقى العرش سنة ٥٢١ ق . م . أى بدأ عهده بعد وفاة غوروش بثماني سنين .

وقد صرح مؤرخو اليونان أن ثورة مادا انما قام بها أتباع دينها القديم ، وقد وصف داريوش نفسه زعيم الثورة بكلمة "موغوش" أى متبع دين مادا القديم (١) . وقد تكررت ثورات أصحاب هذا الدين فيما بعد كذلك ، فنشبت الثورة الثانية بزعامة موغوش "براورتيش" الذى قتل فى هغ متانا ، أى همدان ، والثورة الثالثة قام بها "شترت خمه" الذى أعدم فى أردبيل .

---

١ — وهنا ينبغى أن ننبه على خطأ شائع . نقلوا كلمة "موغوش" فى اللغة العربية "مجوسا" وأطلقوها على أتباع الدين الزردشتى ، ولم يكن فى الاصل اسما لهم فقد ثبت الآن بلا ريب أنه كان اسما يعرف به أتباع الدين الذى كان شائعا فى مادا قبل زردشت ، فقد وردت الكلمة فى أوستا كذلك واستعملت فى شأن معارضى زردشت ، ولكن لما كان قد اشتهر أهل مادا فى بلاد العرب والشام باسم موغوش أخذوا يسمون به اتباع زردشت كذلك . والغين فى اسم "غوروش وموغوش" وأمثالهما أصلها كاف فارسية تشبه فى النطق حرف G فى الانجليزية وكما ينطق أهل القاهرة الجيم ، ولذلك كثيرا ما تكتب عند تعريبها جيما فلا غرابة اذا نطق العرب موغوش "مجوس"

أما كتابات داريوش ، فان من حسن حظ التاريخ أنه اختار لها الصخور الجبلية التي عاشت على رغم الدمار الاسكندري ، وأهم هذه الكتابات ، الكتابة التي اشتهـرت بـ " الكتابة من دون عمد " يذكر فيها داريوش تفصيل ارتقاءه العرش وثورة غوموتـا المجوسي .

وهنالك صخرة أخرى في اسطخر ذكر الملك في كتابتها أسماء البلاد التابعـة له . وقد تكرر في هذه الكتابات اسم " اهورا مزدا " الذي يرجع الملك داريـوش جميع مساعيه الناجحة الى فضله وتوفيقه . ولسنا بحاجة الى التنبيه على أن "أهورامزدا" هو الله في الدين الزردشتي .

وينبغي أن لا ننسى هنا أنه لا يوجد فيما كتبه مؤرخو اليونان ما يستدل به على أن كمبوشيه أو داريوش اختار دينا جديدا ، وقد ولد المؤرخ هيرودتس بعد وفـاة داريوش في سنة ٤٨٤ ق . م . وألف تاريخه بعد وفاته بنحو خمسين سنة ، فـكان عصر داريوش ليس بعيدا عنه ومع ذلك لم يذكر شيئا عن دين داريوش .

ما معنى ذلك ؟ ان كان كمبوشيه وداريوش لم يعتنقا دينا جديدا بعد غـوروش وقد ثبت نهائيا أن داريوش كان يتبع الدين الزردشتي ، أفلا يظهر من ذلك أن دين زردشت كان قد دخل في الأسرة المالكة قبل داريوش وكمبوشيه ، ولذلك نرى أصحـاب الدين القديم يثورون بعد وفاة غوروش بسنين قليلة مرة بعد أخرى ، أفلا يثبت ذلـك جليا أن غوروش كان قد اعتنق الدين الجديد ، دين زردشت ، وأن رؤساء الدين القديم كانوا يحرضون العامة وغوغاء الناس باسم الدين ، ويحملونهم على الثورات .

كانت شخصية غوروش ، ثورة على الميول العقلية والاخلاقية لعصره ، وانا لا نجـد لخصائله الروحية والأخلاقية معينا في البيئات العيلامية ، والأشورية ، والبابلية ، فلابـد من أنه استقى من معين آخر ، ومما لا ريب فيه أنه وجد هذا المعين في تعاليم زردشـت الأخلاقية المثلى : " هومت " و " هوخت " و " هوورشت " أى صدق النية ، وصدق القول ، وصدق العمل . هذا هو أساس تعاليم زردشت الدينية . ومن مثل هـذه الأخلاق كان يمكن أن يتكون مزاج غـوروش الملكي .

وان ما نجده في كتب ويدا الهندية من شعائر عبادة الآلهة والضحايا ، ربما كان شائعا مثله في قبائل مادا وفارس المشتغلة بالزراعة . وكان شرب الخمر من الشعائر الدينية ، وان الشراب المسكر الذي ذكر في كتب ويدا باسم " سوم " كان يسمى عند الماديين والفرس ب " هوم " وأن زردشت ناجى الله في أوستا في شأن هذا الشراب فقال :

" الهي ، متى يؤثر رؤساء هذه البلاد الهداية على الضلال ؟ ومتى يتحرر الناس من شرور الكاربين والكاويين ؟ ومتى يقضى على هذا الشراب النجس الذي يخدعون به الناس ، فيستأصل أصله ويمحى أثره ؟ " (يسنا ٤٨ : ١٠) .

ويقول في مكان آخر :

" ان هؤلاء الضالين المضلين يذبحون الذبائح ويقدمون الضحايا ، ويفرحون بعملهم " (يسنا ٣٢)

مزديسنا :

وقد دعى زردشت الى دين " مزديسنا " أي الى دين التوحيد الذي يحرم الشرك بالله وعبادة الأوثان .

وقد أبطل زردشت جميع معتقدات موغوش ، أي المجوس القدماء قائلا : ليس هنالك قوى روحية كثيرة للخير ، ولا عفاريت كثيرة للشر . بل انما هو اله واحد ، اسمه " أهورا مزدا " الذي ليس كمثله شيء ، وهو الواحد ، الأحد ، القدوس الصمد وهو الحق والنور ، وهو الحكيم القادر الخالق الذي لا يشاركه في ملكه وربوبيته شيء . وان القوى الروحية التي زعموها خالقة للخير ، ليست بخالقة ، بل هي نفسها من خلق أهورا مزدا ، وهي تسمى " أمش سبند " (بالباء الفارسية) و " يزتا " أي الملائكة وانا لنجد في جزء أوستا الذي يسمى ب " گاتها " أسماء ملائكة عديدة مثل " أشا " و " هوفنا " و " خشترا " و " أرمتى " و " هوروتات " و " أمرتات " وكذلك ذكرت أسماء ملائكة أخرى في الكتب التي تلت أوستا ، وقد سميت الأيام والشهور عند الفرس بأسماء هؤلاء الملائكة .

وكذلك صرح زردشت بأنه ليس للشر اله ، بل الذى يأمر بالشر ، هو " انجرامنيوش " أى الشيطان . وقد حرف الاسم ، فأخذوا يقولون : " آنرومين " وبعد مدة حرفوه ، كذلك ، فأصبحوا يقولون : " أهرمن " .

وان من العناصر الأساسية للدين الزردشتى ، الاعتقاد بالحياة الأخروية ، فهو يقول لا تنتهى حياة الانسان بموته فى هذا العالم المادى ، بل له حياة أخرى بعد هذه الحياة الدنيا ، فيرى فى تلك الحياة عالمين : عالم السعادة وعالم الشقاء فالذين عملوا الصالحات فى حياتهم الدنيا ، يدخلون عالم السعادة ، والذين دنسوا نفوسهم بالشرور ، يدخلون عالم الشقاء .

والاعتقاد ببقاء الروح من معتقدات الدين الزردشتى الأساسية ، فهو يقول بفناء الجسم ، أما الروح فيبقى بعد الموت ويلاقى الجزاء وفق أعماله .

وأهم ما فى الدين الزردشتى هو قانونه الأخلاقى ، فليست الأخلاق فى نظره منفصلة عن الدين ، كما كان الأمر عند اليونان ، بل هى جزء من الدين ، لا انفصال بينهما . وكذلك لم يكن الدين عنده شعارا قوميا ، واسما لرسوم وعوائد ظاهرية فقط ، بل قانونا ونظاما للحياة اليومية . وان طهارة النفس وحسن العمل لهو المحور الذى تدور عليه تعاليمه الدينية . وهو يطالب بموافقة النية والقول والعمل لهذا القانون موافقة تامة . وهذا القانون يتلخص فى كلمات ثلاثة: هومت ، هوخت ، هوورشت ،أى صدق النية وصدق القول ،وصدق العمل . وان دينه ، كما قال الأستاذ غرندى " كان دين الحقيقة والعمل ، فقد جعل الدين حقيقة حياة الناس اليومية ، وجعل مكارم الأخلاق ،عنصرا مركزيا له (١)"

وكان دينه لا تشوبه شائبة من الوثنية ، فهو لم يبح عبادة الأصنام فى شكل من الأشكال . وقد مضت على دينه أدوار من التحريف والتبديل ، الا أن متبعيه ما زالوا مجتنبين الوثنية . وقد اعترف بذلك " مالكهم " فى كتابه " تاريخ ايران " قائلا : " لم يجنح الفرس من بين الشعوب القديمة الى الوثنية من أى نوع فى دور من أدوار تاريخهم " .

---

١ ــ راجع مقال الاستاذ فى التاريخ العالمى (Universal History of the world ج ٢ ص ١١٣٠

عرفت الهند القديمة كذلك التوحيد ، ولكن بقى تصوره محصورا فى الخاصة من أهاليها ، أما العامة ، فاستحسنوا لها الوثنية ، أما زردشت ، فلم يفرق فى ذلك بين العامة والخاصة ، فظل شعبه من سائر الطبقات يوحدون الله على السواء . ولا نكون مخطئين ان قلنا : لم ير التاريخ القديم الا دعوتين للأعوان الى التوحيد فى العالم الوثنى ، وهما دعوة ابراهيم عليه السلام من الشعوب السامية ، ودعوة زردشت من الشعوب الآرية .

زردشت والثنوية :

ظن الناس أن الدين الزردشتى قام على الالوهية الثنوية (   ) أى الاعتقاد بوجود الهين اثنين فى الكون : اله للخير ، واله للشر ، كما كان المجوس يعتقدون قبل زردشت ، ولكن ثبت بعد البحث والتحقيق أن هذا الظن ليس من الحق فى شئ . أجل قال زردشت بأصلين كونيين : أصل الخير ، وأصل الشر ، ولكنه لم يقل بالهين متوازيين . كما كان المجوس يعتقدونه قبله ، فقد أنكره هو انكارا تاما . نعم انه كان يقول بالأخلاق الثنوية ، لا بالألوهية الثنوية .

وقد حاول بعض الفرس الزردشتيين فى العصر الحاضر أن ينزهوا الدين الزردشتى عن الثنوية كلية ، الا أن محاولتهم هذه لا تخلو من التكلف ، ولم تكن ثمة حاجة اليها .

ماهى حقيقة الثنوية عند زردشت ؟ انها ليست الا القول بأنه يوجد فى الكون أصلان : أصل للخير وأصل للشر ، وأن الذى يجلب الشر هو " انغراس نيوش " (أهرمن) وهو الشيطان فى لغته ، وهذه الثنوية لا يخلو منها دين ، وان تفاوتت درجات الأديان فيها ، فاليهودية والنصرانية والاسلام ، كل من هذه الأديان الثلاثة يقول بوجود الشيطان ، وان عمدنا الى تحليل " انغراس نيوش " الذى ذكره أوستا . والشيطان الذى حدثنا عنه كتاب الخلق من التوراة تحليلا منطقيا ، فاننا لا نجد بينهما فرقا جوهريا .

وهنا تعترض لنا مسئلة أساسية : أليس فى الكون شئ يصح أن يسمى بالخير أو الشر ؟ وهل الذى نسميه بالخير أو الشر ليس له وجود فى الخارج بل هو تأثر

اضافى لنا فقط ؟ ان قلنا بذلك فطبعا لا يبقى مجال لوجود الشيطان او انغراميسو نيوش ، ولكن ان قلنا بوجود حقيقتين متوازيتين للخير والشر ، فلا مناص من قبول الثنوية فى شكل من الأشكال ، وسواء سميناها بهذا الاسم أو بغيره ، فانها تحتل مكانها فى معتقداتنا .

وهذا أفلاطون ينقل لنا فى كتابه " الجمهورية " قول سقراط ، ان الشر فى العالم أكثر من الخير، ولما كان من المستحيل أن يكون الله علة الشر ، فلابد من البحث عنها فى شخص آخر . وهذا البحث يصل بنا الى الشيطان أو الى انغرامى نيوش . وقد حكى كتاب الخلق من التوراة قصة آدم والشيطان وقص أوستا قصة " جم " و " انغرامى نيوش " والحقيقة واحدة فى القصتين وأن اختلفت الأسماء والأشكال .

روح مزديسنا الأخلاقيـــة :

وقد اجتمعت كلمة محققى العصر الحاضر على أن تعاليم زردشت قد لعبت دورا هاما فى الرقى الانسانى الفكرى والأخلاقى ، وأنه وصل بأهل مادا وفارس قبل خمسمائة سنة من الميلاد الى المستوى الأخلاقى الطاهر الرفيع بينما كان اليونان والروم فى حضيض من الأخلاق . وأن الدين الذى جعل هدفه الوحيد تطهير الحياة الفردية من أدران الشرور ، كان خليقا أن يسبك قوالب مثالية للأعمال الحسنة والخصائل الحميدة .

ومن الذين شهدوا له بذلك ؟

هم أولئك الذين لا يمتون بصلة صداقة للفرس ، بل كانوا ألد أعدائهم . وعلى رغم ذلك نراهم لا يمارون فى فضل الفرس الأخلاقى ، فهذا هيرودوتس وزينوفن يعترفان صراحة بأن الفضائل التى تحلى بها الفرس ، خلت منها اليونان . ولنستعر من الأستاذ غرندى كلمته التى قالها فى هذا الباب " ان ما كان الفرس قد اتصفوا به من الصدق ومحاسن الأخلاق ، لا نرى له مثيلا فى الشعوب المعاصرة لهم " .

كتابات دارايوش :

بلغ الدين الزردشتى ذروة مجده فى عصر دارايوش . وهنا نحن أولاء نـــــرى

الامبراطور يردد صوت هذا الدين فى كتاباته الخالدة • على الصخور ، فيقول فـــى واحدة منها ، وقد مضت عليها ألفان وخمسمائة سنة :

" ان الاله العلى ، أهورامزدا ، هو الذى خلق الأرض ورفع السماء ، وفتـــح سبل السعادة على البشر ، وهو الذى أقام داريوش وحده حاكما على الكثيريـــــن ، وجعله واضع الشرائع لهم " •

ويقول فى كتابة أخرى :

" يعلن داريوش للناس قاطبة بأن أهورامزدا ، قد وهبنى الملك بفضله ورحمتــه وقد نجحت بتوفيقه تعالى فى تدعيم الأمن والسلام فى الأرض ، وانى ابتهل الـــى أهورامزدا الهى ، أن يرعانى أنا ، وأسرتى ، وجميع البلاد التى جعلنى حاكما عليها • يارب ، أهورامزدا ، اسمع دعائى واستجبه " •

الدعوة الى الصراط المستقيم :

وكذلك يقول الملك :

" ياأيها الانسان ، أمرك أهورامزدا أن لا تخوض قط فى الشر ، ولا تحيد عن الصراط المستقيم أبدا ، واحذر الاثم فى جميع الأحوال ! "

ولا تنس أن داريوش كان ابن عم غوروش ، وقد خلفه بعد وفاته بثمانى سنين فقط وعلى ذلك ما يقول داريوش ، فكأنه قول غوروش نفسه ، وان نسبة داريوش ملكه وكل نجاحه الى فضل أهورامزدا وتوفيقه ورحمته ، تطابق قول ذى القرنين فى القرآن " هذا رحمـة من ربى " (٩٨)

تأخر مزديسنا وتحريفه وامتزاجه بغيره :

وقد بدأ تأخر الدين الزردشتى من القرن الثالث قبل الميلاد ، فرفعت المعتقدات المجوسية القديمة رأسها من جهة [٢] وأخذت المؤثرات الخارجية تعمل عملها فيــه ،

---

1 - G. Rawlinson' Five Great Monarchies of The Ancient Eastern World

٢ - يشبه هذا ما حصل للديانة البوذية فى الهند فقد طغت على الهندوسية الديانة القديمـــة مدة فى الهند ثم انحسرت وتقلص ظلها وعاد أكثر الناس تدريجيا الى الديانة الهندوسية

حتى نرى هذا الدين ، دين غوروس وداراپوس فى عصر الامبراطور الرومانى ، "أنتونين (Antonin) قد تحول الى شكل آخر ففقد سذاجته الأولى ، وانضمت اليه عقائد معوجة معقدة .

والحقيقة التى لا مراء فيها أن حرب الاسكندر لم تقض على دولة الفرس السياسية وحدها بل جرحت مجد دينها القوى كذلك جرحا بليغا . تقول لنا الأسطورة الفارسية أن صحيفة زردشت الدينية المقدسة كانت دونت فى جلود اثنى عشر ألف ثور بحبر من الذهب ، واحترقت أيام حرب الاسكندر .

ولاشك أن القول بجلود اثنى عشر ألف ثور ، مبالغ فيه ، ولكن مما لا ريب فيه أن ما فعلت اغارة بخت نصر مع التوراة ، فعلته اغارة الاسكندر مع أوستا كتاب زردشت ، أى أن الدينين فقدا معظم بضاعتهما .

ولما تأسست الامبراطورية الساسانية بعد خمسمائة سنة من الاسكندر ، حاول الفرس لم شعث الدين الزردشتى من جديد ، فكما جمع النبى عزرا التوراة بعد أسر بابل ، كذلك يقال ان " أردشير بابكان " أمر بجمع كتاب أوستا من جديد الا أن خصوصيات الدين الحقيقية كانت قد تحرفت بتغييرات واضافات كثيرة ، ومسخت حقيقتها فالدين الزردشتى فى شكله الجديد ، لم يكن دينا خالصا ، بل أصبح خليطا من المجوسية القديمة ، واليونانية ، والزردشتية . وقد زاد المفسرون له الطين بلة وذلك بحواشيهم وشروحهم وتفاسيرهم التى ذهبت بالدين بعيدا عن أصله .

الأسلام والزردشتيون :

ولما جاء الاسلام ، كان هذا الدين الزردشتى المحرف معروفا للعرب باسم المجوسية وهذا خطأ كما سبق أن نبهنا فى الهامش — غير أن نبى الاسلام صلى الله

عليه وسلم لم يخف عليه أصله ، فقال " سنوا بهم سنة أهل الكتاب " أى عاملوا الزردشتيين كما تعاملون أهل الكتاب ، فترى من هذا أن نبى الاسلام عليه السلام لم يقم الزردشتيين مقام المشركين ، بل وضعهم بمقام أهل الكتاب .

وهكذا اعترف الاسلام لدينهم بما اعترف به لدين اليهود والنصارى ، وانك لتعلم أن الاسلام بينما يصدق بأصل دين اليهود والنصارى ، ينكر عقائدهم المحرفة المبدلة . وهذا هو ما فعله بالدين الزردشتى ، فلم ينكر أصله ، بل أنكر المجوسية المحرفة المبدلة .

وقد روى عن أمير المؤمنين على رضى الله عنه أنه قال : (انى أعلم ما عليه المجوس . عندهم شريعة يعملون بها ، وكتاب يؤمنون به ، فعاملوهم معاملة أهل الكتاب) .

فما زال المسلمون يرون أن الدين الزردشتى فى أصله لم يأمر بعبادة النار ، بل أمر بالتوحيد ، وأن زردشت كذلك كان نبيا من الأنبياء القدماء . وقد أفصح الفردوسى صاحب " شاه نامه " الخالدة عن هذا الرأى بقوله :

مگوئى كه آتش پرستان بدند   پرستند كان نيك يزدان بدند

أى لا تقل عن الزردشتيين أنهم كانوا عبدة النار ، بل كانوا يعبدون الله الواحد .

وكان أبو الريحان البيرونى فى عصر الفردوسى يحقق التواريخ والسنين للأمم القديمة . وقد قال فى كتابه " الآثار الباقية " ما يستنبط منه أنه كان يفرق بين الدين الزردشتى والمجوسية . وقد صرح شيخ الاشراق ، شهاب الدين المقتول فى كتابه " حكمة الاشراق " بأن زردشت كان نبيا . ليس هذا فحسب بل وصل بين

الخـــــلافـــــة (١)

" الخلافة " : مصدر من خلف يخلف خلافة ، ومنها الخليفة ، من قولك : خلف فلان فلانا ، فى هذا الأمر ، اذا قام مقامه فيه بعده (ابن فارس) . فالخليفـــة هو الذى يخلف من قبله ، ويقوم مقامه ، اما بموته أو اعتزاله أو تخليته أو نصبه اياه فــى منصبه وسلطته ، وفى مفردات الامام الراغب الأصفهانى " الخلافة : النيابة عن الغـير اما لغيبة المنوب عنه ، واما لموته ، واما لعجزه ، واما لتشريف المستخلف " (ص١٥٩)

وهذه الكلمة أيضا من تلك المختارات اللغوية التى اختارها القرآن الحكيم ، فنقلها من معانيها اللغوية الى المعانى المصطلحة الشرعية (كالايمان والغيب والتقدير والبعث والصلاة) وغيرها من الكلمات التى انتقاها من اللغة لمعنى خاص به ، فكلمة (الايمان) مثلا تستعمل فى اللغة لليقين والطمأنينة وزوال الخوف والشك ـ ولكن القرآن يستعملهـا فى يقين أخص من الأول ، يصحبه اقرار باللسان وعمل بالجوارح ، فصارت اصطلاحـــا خاصا دالا على معنى خاص به دون دلالتها فى اللغة .

وكذلك كلمة الخلافة كان معناها فى اللغة ، فوضعها القرآن لمعنى أخص مـــن الأول ، واستعملها ـ وكذلك الاستخلاف فى الأرض ، ووراثتها والتمكين فيها ـ فـــى المنظمة القومية ، والرئاسة الملية ، والحكومة العامة ، والسلطة التامة على الأرض ومن فيها من الامم والشعوب ، وعدها أكبر منة وجزاء من الله سبحانه تناله الأمم فى هذه الحياة الدنيا ، على ايمانها وحسن عملها .

١ـ نشر هذا البحث فى مجلة المنار فى المجلد الثالث والعشرين الصادر سنة ١٣٤٠ ، ١٣٤١ هـ الموافق سنة ١٩٢٢ صفحات ٤٥ ـ ١٠٢ ـ ١٩٣ ـ ٢٨٢ ـ ٣٦١ ـ ٤٦٦ ـ ٥٠٩ ـ ٦٩١ ـ ٧٥٣ . وقد تعرض السيد رشيد بالنقد فى الهامش لبعض آراء مولانـا أزاد حول الخلافة وكان السيد عبدالرزاق تلميذا للسيد رشيد رضا كذلك فى مدرســة الدعوة والارشاد حيث قضى مدة بمصر وظل يراسل أستاذه كذلك بعد رجوعـــه للهنـــد وهو الذى قام بترجمة هذا البحث .

اما المراد من هذه الخلافه فهو ان تقوم فى الارض امه وحكومة تأخذ على عاتقها هداية النوع البشرى وسعادته ، وتنشر لواء القسط الالهى ، وتمحق الظلم والجور والضلال والطغيان ، حتى لاتذر له اثرا على وجه البسيطه ، وتمد رواق الامن والسكينة والراحة والطمأنينه على العالم باسره وتقيم ناموس العدل الالهى الذى يسميه القرآن " الصراط المستقيم " الذى هو نافذ من الارض الى السموات العلى ، ومن ذرات الرمل فى الصحراء الى الشمس والقمر والنجوم وما هو تحت الثرى ، تقيم ذلك الناموس فى مشارق الارض ومغاربها ، وتنفذه فى جميع بقاعها ونواحيها ، حتى تصبح الكرة الارضية جنة ودار قرار ، وتكون السعادة ضاربه فيها بأطنابها والامنة باسطة جناحيها من فوقها .

وانما اطلق لفظ الخلافة على هذه الخلافة المصطلحة ، لان اول امه واول فرد لما قام فى الارض باعباء الخلافة كان نائبا عن الله فى اقامه عدله ، ثم الذين جاءوا بعد تلك الامه وذلك الفرد كانوا نائبين عنهم فى هذا الامر ، حتى ظهر الاسلام ، وقامت الامه الاسلاميه ، فانتقلت الخلافة الارضية الالهية اليها . فكان اول خليفة من هذه السلسلة المباركة صاحب الشرع المتين ، ورسول رب العالمين محمد صلى الله وسلم ، فكان خليفة الله العظيم مباشرة ، ثم الذين استووا بعده على منصه الحكومة الاسلامية المركزية ، فكانوا خلفاء هذا الخليفة الالهى ، والنائبين عنه فى الدنيا فلذا سموا " الخلفاء " ولايزالون يسمون به الى الان .

وقد تقلبت خلافه الارض ووراثتها فى امم كثيرة قامت كل واحدة منها فى نوبتها بخدمه دين الله الحق . وقد ذكرت هذه الخلافه فى الايات الاتية : " هو الذى جعلكم خلائف الارض " (٦ : ١٦٥) " ويستخلف ربى قوما غيركم " (١١ : ٥٧) " ثم جعلناكم خلائف فى الارض من بعدهم لننظر كيف تعملون " (١٠ : ١٤) " واذكروا اذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح " (٧ : ٦٨) " يا داود انا جعلناك خليفة فى الارض " (٣٨ : ٢٦) .

وعبر عن هذه الخلافة " بوراثة الارض فقال تعالى : " ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر ان الارض يرثها عبادى الصالحون (٢١ : ١٠٥) وايضا : بالتمكن فى الارض ، وهو استفحال القوة ، وكمال العظمه الذى ناله فتى اسرائيلى فى ارض الفراعنة

بعد أن بيع فيها عبدا ، ثم وصل الى عرش الحكومة وتاج الملك بعلمه الحق وسيره القويم " وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض " (١٢ : ٥٦) .

وقد وعد الله به سبحانه المسلمين فقال : " الذين ان مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ، ولله عاقبة الأمور " (٢٢ : ٤٣) وثبت أيضا من هذه الآية أن الله تعالى انما يريد من التمكن فى الأرض أن تقام عبادته فيها ، ويعم الصلاح والصدق والهداية ، ويصد الانسان المنود عن غيه وعمل المنكر .

وعبر فى الآية الأخرى عن التمكين فى الأرض " بالخلافة " فقال تعالى : " وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدوننى لايشركون بى شيئا ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون " (٢٤ : ٥٥) .

نزلت هذه الآية العظيمة بعد هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه الى المدينة ، وكانوا فيها خائفين من الكفار ، ومحاطين بالأعداء من كل جهة : يصبحون فى السلاح ويمسون فى السلاح ، فضجر منهم رجل من هذه الحالة وقال : " ما يأتى علينا يوم نأمن فيه ونضع عنا السلاح ، فبشرهم الله بهذه الآية أن لا يهنوا ولا يحزنوا فانه لا يضيع أجر ايمانهم وحسن صنيعهم ، فسينالونه باذنه ، ويأمنون أعداءهم ، فيذهب عنهم الخوف ، ويحل محله الأمن ، ويصيرون ملوكا وسلاطين ، فيكون الأمر أمرهم ، والكلمة كلمتهم ، وأكبر من ذلك كله أن خلافة الله ستنتقل اليهم ، فيرثونها وتطمئن قلوبهم بها (ذكره الطبرى بالمعنى فى تفسيره عن أبى العالية (ج ١٨ص ١٠٩) .

وقد تضمنت هذه الآية أن مراد القرآن الحكيم " بالخلافة " انما هو " خلافة الأرض " أى الحكومة والسلطان فيها . فاذا لابد للخليفة الاسلامى من أن يكون صاحب الأمر والنهى والحكومة التامة ، لأنه ليس كبابا المسيحيين وبطارقتهم ، فأولئك سلطتهم روحية ، وهى خضوع القلوب ، وانحناء الرؤوس أمامهم . بل هو حاكم وسلطان بالمعنى الحقيقى ، الا أن سلطته يجب أن تكون تحت الشريعة الالهية ، وليس له حق التشريع

البته ، ولا اعطته الشريعة سلطة دينيه روحانية كما اعطت المسيحية البابوات ، لانهـا تعد كل سلطة لغير الله ورسوله شركا به وكفرا ، تمقته اشد المقت ، وتمحقه من اول ظهوره قال الله تعالى : " اتخذوا احبارهم ورهبانهم اربابا من دون الله " (٩ : ٣٢) وقال : ماكان لبشر ان يوءتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عبادا لي من دون اللـه ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون (٣ : ٧٩) .

هذا وقد وفى الله تعالى للمسلمين وعده بالخلافه ، كما وفى جميع وعوده ، وعهوده ، فلم تمض بضع سنين والرسول بين اظهرهم ، الا واصبحت جزيرة العرب في قبضة يدهـم وشوهدت جيوشهم خارجة من اسوار المدينه لمقاومة الروم — اعداء دينهم — وسيقـت الخلافة الارضية اليهم بعد ان نزعت من غيرهم . فكان اول خليفة منهم هو حامل الشريعـة الغراء بنفسه صلى الله عليه وسلم ثم الذين قاموا في مقامه من بعده كانوا خلفاء . وقد اوضـح النبي صلى الله عليه وسلم بتسميتهم " خلفاء " انهم ينوبون عنه بعده ، فقال للمسلمين : " عليكم بسنتي وسنه الخلفاء الراشدين من بعدي " (رواه ابن ماجة عن العرباض بن سارية) ولذا سمى ابو بكر الصديق رضي الله عنه لما خلفه خليفة رسول الله صلى اللـه عليه وسلم .

الخلافـة النبويـة الخاصـة

والخلافة الملكيـة

انصبغت الخلافة الاسلامية بعد النبي صلى الله عليه وسلم بصيغتين مختلفتين وظهرت بمظهرين متباينين ، وكان عليه السلام قد اخبر عنهما ، ورفع الستار عن خصائصهما والاحاديث التـي وردت في هذا الباب تكاد ان تكون متواترة لكثرة طرقها وشهرة متونها — فخلافه الخلفاء الراشدين المهديين كانت مصبوغة بصبغة الرسالة ، وسائرة على منهاج النبوة ، فكانت خلافة الرسول حقا ، والخلفاء الراشدون خلفاء ، حقا لا في منصه الحكم والسلطان فحسب ، بل في جميـع اعماله وهديه ، فكانوا مثله دعاه الدين هداه الامم ، قضاه الشرع ، قادة الشعوب ساسه البلاد ، قواد الجيوش ، اخوة الحروب ، رايات .

وقد كان هذا الدور أكبر مصيبة ابتليت بها الأمة ، فبعد أن كانت ترتع فى رياض النبوة ، وتجنى ثمار الخلافة الراشدة آمنة مطمئنة اذ نعق ناعق الشر بينها ، وقتـل الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضى الله عنه بين يديها ، تقلص ظل هدى النبـوة شيئا فشيئا ، وذهبت بركاتها واحدة واحدة ، وأخرجت البدع رؤوسها ، وزحفت الفتن بخيلها ورجلها ، فأحاطت بها من كل جوانبها ، فكلما بعدت الأمة عن عهد الرسالة حرمت نصيبا من بركاته وبركات الخلافة الراشدة .

ولم يكن حرمانها محصورا فى أمر الامامة العظمى والخلافة الكبرى فقط ، بـل تعداها الى غيرها ، وتغلغلت جراثيم الفساد فى هيكلها الاجتماعى ، فزعزعت نظامهـا وتوامها ثم سرت الى حياتها الشخصية ، فأفسدت عقائدها وعواطفها ، ونفثت فى أعمالها سومها ، فغيرت من صغيرها وكبيرها — ولم تكن فتنة واحدة أو فتنا قليلة محصـورة يسهل اتقاؤها ، بل سالت سيول من الفتن دهمت المسلمين بغتة ، فماجت عليهم أمواجها وثقلت عليهم وطأتها ، فكانت — كما قال أعلم الصحابة بالفتن حذيفة رضى الله عنه — " تموج كموج البحر " ، وبين لهم أنه ليس بينها وبينهم سد الا عمر بن الخطـاب رضى الله عنه ، وانه متى سقط هذا السد المنيع طغت السيول الجارفة وبغت ، فلـم يقدر أحد على صدها ، فما زالت حتى أخذت الخلافة النبوية فى تيارها وحطمتهـا وتركتها أثرا بعد عين .

نعم وقع ما وقع ، الا أن الأمة الاسلامية قد بشرت على لسان نبيها بأنها ستـرى فى آخر أيامها عهد تجلٍ وفلاح ، تقر به عينها ، فتشفى صدرها ، وتصلح أمورهـا حتى لا يدرى أولها خير أم آخرها ، ويتم فيه نور الله " والله متم نوره " الخ " ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون " ولذا لا يزال قلب المؤمن قويا برجاء الله ، مملـوءا باليقين ، لم يخالطه ريب ولا دخله زيغ ، ولا صادفه يأس وقنوط ، حتى فى هذا الزمان الذى انصبت فيه على المسلمين المصائب ، ونزلت بهم النوازل ، وزلزلوا فيه زلزالا شديدا . بل كلما ازدادت العواصف شدة والليل ظلمة ، والأرض عداوة ، يزداد المؤمن رجـاء ويقينا ، ويبصر بعينه نور الصبح الجميل من بين هاتيك الظلمات والغيوم والعواصف ولسان حاله يقول " ان موعدهم الصبح ، أليس الصبح بقريب ؟ " .

عهد الاجتماع والائتلاف
ودور التشتت والانتشار

==========

قبل أن نخوض غمار هذا البحث نتكلم فى هذا الفصل على كلمتين مصطلحتين زيادة فى الايضاح وتفصيلا للبيان — فنقول :

" الاجتماع والائتلاف " كلمتان خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان فى الميزان ، فيهما سر حياة الأمم ومماتها ، نهوضها وهبوطها ، وسعادتها وشقوتها . فالاجتماع من الجمع ، وهو ضم الشيء بتقريب بعضه من بعض (مفردات ص ٩٥) ويقرب منه "الائتلاف" من الألف واجتماع من التئام . " والمؤلف ما جمع من أجزاء ، ورتب ترتيبا ، قدم فيه ما حقه أن يقدم ، وأخر فيه ما حقه أن يؤخر " . (مفردات ص ١٩) .

أما عهد الاجتماع والائتلاف " فهو ذلك العهد الذى تجتمع فيه القوى الاجتماعية الفعالة فى مكان واحد ، وفى نقطة واحدة ، وفى سلسلة واحدة ، وفى ذات واحدة ، وفى يد واحدة ، بترتيب طبيعى لائق بها ، فتصبح كل المواد والقوى والأعمال الاجتماعية وأفراد الأمة متماسكة متشابكة ، حتى لا ترى فيها خللا ولا خرقا ولا فتقا . بل تجدها كلها كحلقات السلسلة التى التحم بعضها مع بعض فأصبحت شيئا واحدا .

فدور الاجتماع والائتلاف اذا جاء على المادة ظهر فيها الخلق ، واستعدت للحياة ، وعبر القرآن عن هذا " بالتخليق والخلق والتسوية " فقال " الذى خلق فسوى "(٢:٨٧) — فالوجود والحياة ليس الا اجتماع لأجزاء المادة مؤتلفة ، وكذلك الموت والفناء ليس الا تفرقها وتشتتها .

واذا جاء على الأعمال سماه علماء الأخلاق " بالخير " وسمته الشريعة " بالعمل الصالح " — والحسنات " واذا جاء على الجسم سماه علم الطب " بالصحة " وقال الطبيب " هذه حياة " ثم اذا جاء على القوى والأعمال الاجتماعية القومية سمى " بالحياة الملية الاجتماعية " وكان موجها لنبوغ الأمة ونفوذها وسلطانها — فالعبارات مختلفة كثيرة . والحقيقة واحدة لا تتعدد ولا تتبدل . ولا غرو فان الله الحكيم واحد منفرد . وحكمته

واحدة ، وناموسه واحد – ولنحم ما قهل ٠

عباراتنا شتى وحسنك واحـــد ٠°٠ وكل الى ذلك الجمال يشير

وضد الاجتماع والائتلاف " التشتت والانتشار " فالتشتت من " الشتات " ومعناه فى اللغة التفرق يقال شت جمعهم شتا وشتاتا ، وجاءوا اشتاتا أى متفرقى النظـــام (مفردات ص ٢٥٦) وفى القرآن " يومئذ يصدر الناس أشتاتا " (٦/٩٩) مـن نبات شتى (٥٣/٢٠) وقلوبهم شتى (١٤/٥٩) اى مختلفـة " والانتشار " من النشر وهو ايضا التفرق والبسط كما فى القرآن " فاذا قضيت الصلاة فانتشـروا " أى تفرقوا –

واما دور " التشتت والانتشار " فهو ان تتفرق المواد والقوى والاعمال والافـراد فيصير كل شئ على ضد ماكان عليه فى عهد الاجتماع – فاذا عرضت هذه الحالة للمادة قيل " فساد وانحلال " وللجسم قيل " مرض وداء ثم موت " وللاعمال قيـل فى تعبير القرآن " عمل السوء والعصيان والفسق والاجرام " وللامم قيل " المـوت العلى ، والموت الاجتماعى " فتصبح الامة فى هذا الدور فى هبوط بعد الصعـود وذلة بعـد العزة ، وضعف بعد القوة ، وعبوديـة بعد الحريـة والسيادة ثـم تسـير الى الموت والهلاك بعد ان كانت صحيحة قوية حية فيالك من بلاء ليـس فوقـه بلاء والعياذ باللـه ٠

ولذلك تجد القرآن ينبه مرة بعد مرة على ان " الاجتماع والائتلاف " الاسـاس الاكبر لحياة الامم ، ويعـده اكبر نعمة من اللـه سبحانه على البشر ، ويعبر عنـه بالعبارات العظيمة الشأن " كالاعتصام بحبل الله " وغيره ، ويقول للأمة " واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقـوا واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم اعداء فالف بيـن قلوبكم فاصبحتم بنعمته اخوانا " ثم يخبر بعـد هذا بان لاحياة مع التشتت والانتشار فانـه نار موقـدة تحرق كل شئ يقربها ولا سيما شجرة الحياة الاجتماعية، فانهـا اذا مستها لا تبقى عليها ولا تـذر – فقال تعالى " وكنتم على شفا حفـرة مـن النار فانقـذكم منها ، كذلك يبين الله لكم اياتـه لعلكم تهتدون " (١٠٣/٣) ثم يخبر بان الحياة الاجتماعيـة فى الأمـــــــــــــم

الأمم ليست من تدبير البشر (١) ، فمهما بلغ الانسان من القوة والعظمة والعقل ، لا يقدر على أن يكون أمة ، بل هو الله الواحد القدير بجمع الأشتات فيؤلف بينهما ويسلكها فى نظام واحد فقال " لو أنفقت ما فى الأرض جميعا ، ما ألفت بين قلوبهم ، ولكن الله ألف بينهم انه عزيز حكيم " (٦٤/٨) .

وأخبر القرآن أيضا بأن أول ثمرة تثمرها الفريضة الآلهية وأعظم بركة تجود بهما على النوع الانسانى فى الدنيا هى " الاجتماع والائتلاف " وكرر مرة بعد أخرى أن التفرق والتشتت والانتشار لا يجتمع مع الدين أبدا . وأنه عاقبة الاعراض عن الله وعصيانه والبغى فيه . فقال " وما اختلف فيه الا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم (٢٢٢/٢) وما اختلفوا حتى جاءهم العلم " (٩٣/١٠) وآتيناهم بينات من الأمر ، فما اختلفوا الا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم " (١٦/٤٥) .

ولذلك جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم الاسلام والحياة الاسلامية فى الجماعة وعد الخروج عنها من الجاهلية . والحياة الجاهلية . فقال " من فارق الجماعة فمات فميتته جاهلية " (كما ستراه مفصلا ان شاء الله) وأمر المسلمين أمرا مؤكدا بالتزام الجماعة فى كل حال . وطاعة الأمير سواء كان برا أو فاجرا . أهلا للأمارة أو غير أهل . عادلا فى حكمه أو ظالما . الا أن يمرق من الدين جهارا أو يترك الصلاة فحينئذ لا طاعة له عليهم (٢) — وأخبر أن كل من تنكب عن الجماعة شبرا فقد كسب

---

١ — ليس المراد أنه لا ينبغى لزعماء الشعوب والأقوام المتفرقة أن يسعوا الى تكوينها وجعلها أمة عزيزة لعجز البشر عن ذلك بل المراد أن هذا التكوين للأمم قد جعل بسنة الله تعالى فى الاجتماع أثرا وغاية لأعمال أطوار كثيرة بعضها من كسب الافراد وبعضها ليس من كسبهم فلا تقع بتدبيرهم ولكن عليهم أن يعملوا ما فى طاقتهم من وسائلها ويكلوا الى عناية الله تعالى انجاح سعيهم واتمام عملهم .

٢ — انما الطاعة فى المعروف ولا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق كما صح فى الحديث وأجمع عليه المسلمون . وصرح الخلفاء الراشدون على منبر الرسول صلى الله عليه وسلم بمطالبة المسلمين بتقويم زيغهم وعوجهم ، وانما يمتنع عند علماء اهل السنة الخروج على الامام الجائر اذا كان يخشى من الخروج عليه فتنة تفرق الأمة وشق عصاها لضعف القائمين بذلك من الأمة . واذا كان المؤلف قد وعد بتفصيل — القول فى المسألة فاننا منتظرون ما يجىء به فاما أن نقره واما أن نذيله بحاشية نبين فيها ما نرى انه الحق كما بيناه فى المنار مرارا .

زردشت وبين المذهب الافلاطونى الجديد [1] ، ووافقه فى قوله ، شارح " حكمة الاشراق " قطب الدين الشيرازى . وقد صرح من بين متصوفى الهند ، الصوفى السمح ، الواسع الفكر الميرزا مظهر جان جانان بمثل هذا الرأى فى شأن قادة الأديان القدماء بالهند وايران " [2]

ولما نقل العرب ما وجدوه من الكتب الفارسية القديمة الى اللغة العربية ، ترجموا كذلك كتاب (أوستا) الذى ذون فى العصر الساسانى ، واليه يشير مرة بعد أخرى أبو حمزة الأصفهانى فى تاريخه . وكذلك بين المسعودى والبيرونى نوعية أوستا ، وذكرا ترجمته العربية ، فقالا ، ان أوستا يحتوى على واحد وعشرين جزءا يكتب كل جزء منها فى نحو أربعمائة صفحة ، وأنه يسمى أحد الأجزاء بـ " جسترشت " الذى ذكرت فيه بداية العالم ونهايته ، ويسمى الجزء الأخير منها بـ " هادوخت " الذى يحتوى على وصايا أخلاقية [4].

---

١ ـ نفى الفلاسفة من الاسكندرية بأمر امبراطور الرومان جستنين فى سنة ٥٢٩ م . فتوجه بعضهم الى ايران ولقوا كل ترحيب فى بلاط أنوشروان ، وقيل ان : سمبلي تس وديوجا ستس ، قد خصا باحترام كبير فى البلاط ، وقد عرفت اللغة الفارسية مذهب أفلاطون الجديد بسبب هؤلاء الحكماء ، وليصبغوه بالصبغة القومية ، نسبه بعض حكماء ايران الى زردشت وجاماسب ، ولما نقلت الآداب الفارسية الى العربية توهم الناس أنه كانت لزردشت وجاماسب فلسفة ذات أسرار ، تشبه فلسفة الاسكندرية الى حد كبير ، ولعل الذى كتبه شيخ الاشراق فى مقدمة " حكمة الاشراق " ناتج من هذا الوهم . وقد أخطأ حكماء العرب فى ظنهم أن مذهب أفلاطون الجديد الاسكندرى ، مذهب أفلاطون نفسه . وقد وقعوا فى هذا الخطأ لأنهم لم يفرقوا بين بلاتينس وأفلاطون ، أو خدعتهم نسبة المذهب الى افلاطون .

٢ ـ كلمات طيبات ، مكتوب ١٤ ص ٢٧

٣ ـ تاريخ سنى ملوك الأرض ص ٦٤ ٤ ـ المسعودى ج ٢ ص ١٢٦ والآثار الباقية ص ١٠٥

ومن المؤسف أن نسخة أوستا العربية هذه التي كانت موجودة الى القرن الرابع من الهجرة ، كما صرح به أبو حمزة الأصفهاني ، قد فقدت ، ولم يبق لها أثر في دور الكتب العالمية الحاضرة . وكل ما عندنا من الذي يسمى بأوستا ، هو جزء ناقص من أوستا العصر الساساني الذي وصل الينا بواسطة الفرس الزردشتيين المهاجرين الى الهند . ونحن مدينون لمساعي المستشرق الفرنسي " آنك تيل " وتضحياته العلمية في معرفتنا بهذا الجزء وأما محتوياته ، فنجد على خمسة فصول (غاتهــا) منه صحة من العصر الزردشتي ، والباقي ينطق بلسانه أنه دون في العصر الساساني أو بعده .

(سد يأجوج ومأجوج)

ها نحن قد فرغنا من البحث في شخصية ذي القرنين ، ولم يبق لنا الا النظر في مسألة يأجوج ومأجوج ، فيا ترى أي سد أريد به ؟ وأين نبحث عنه في أوراق التاريخ وفي خريطة الأرض الجغرافية ؟

وعلينا أن نتذكر في معالجة هذا البحث أن القرآن ذكر أمرين من السد بخصوصية وهما :

أنه اى السد ، بني في مكان ارتفعت الجبال كجدارين على جانبيه ، أي كان المكان مضيقا جبليا .

وأن السد الذي أقيم به ، استخدمت فيه زبر الحديد (أي قطع الحديد) وأفرغ عليها النحاس المذاب .

وعلى ذلك يجب

١ ـ ان نجد السد في ضيق جبلي ٢ ـ وأن يكون هو جدارا حديديا لا جدارا من الحجر والاجر .

٣ ـ ويكون قد سد بارهق المضيق الجبلي .

نبهنا الى هذه الأوصاف لأن مفسرينا غضوا النظر عنها ، فهم اذا سمعوا بوجود جدار فى مكان ما ، سبق الى أذهانهم أنه هو السد الذى بناه ذوالقرنين حتى أن المرحوم الشهير السيد أحمد (خان) من الباحثين المصريين ، ذهب الى أن جدار الصين هو سد ذى القرنين ، فى حين أن هذا الجدار لا يمكن أن يكون ذلك بحال ، لأنه لم يبن فى مضيق جبلى ، ولا استخدمت فيه قطعات الحديد ، بل هو جدار من الحجر يمتد الى مئات من الأميال .

يأجوج ومأجوج :

ولنبحث عن يأجوج ومأجوج أولا : فاذا وجدناهم ، سهل علينا الوصول الى السد .

ذكر القرآن يأجوج ومأجوج فى سورتين ، فقال فى سورة الأنبياء " حتى اذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون " (٢١ : ٩٦) وفى سورة الكهف التى قصت قصة ذى القرنين .

ان كلمتى " يأجوج " و " مأجوج " تبدوان كأنهما عربيتان ، ولكنهما فى أصلهما قد لا تكونان عربيتين ، انهما كلمتان أجنبيتان اتخذتا الصورة العبرية ، فهما تنطقان باليونانية " گاگ " (Gog) و " ماگاگ " (Magog) وقد ذكرتا بهذا الشكل فى الترجمة السبعينية للتوراة ، وراجتا بالشكل نفسه فى سائر اللغات الأوروبية .

وقد ورد هذا الاسم لأول مرة فى التوراة فى كتاب الخلق عند ذكر خروج أمم العالم من ذرية نوح ، فقال " ولد ليافث بن نوح ، جمر ، ومأجوج ، ومادى ، ويونان وتوبال ، ومسك ، وتيراس " (١٠ : ٢) .

ثم تكرر ذكرهم فى الصحف الأخرى وقد ذكروا بصراحة وتعيين واضحين فى صحيفة حزقيال كما ستراه ، وكذلك جاءت نبوءة بظهورهم فى مكاشفات يوحنا فى

العهد الجديد .

فمن كان هؤلاء القوم ، ياترى ؟

لقد تضافرت الشواهد التاريخية على أنهم لم يكونوا الا قبائل همجية بدوية من السهول الشمالية الشرقية ، تدفقت سيولها من قبل العصر التاريخى الى القرن التاسع الميلادى نحو البلاد الغربية والجنوبية وقد سميت بأسماء مختلفة فى عصور مختلفة ، وعرف قسم منها فى الزمن المتأخر باسم " مجغر " فى أوربا ،وباسم التتار فى آسيا .

ولاشك أن فرعا لهؤلاء القوم ، كان قد انتشر على سواحل البحر الأسود فى سنة ٦٠٠ ق . م . وأغار على آسيا الغربية نازلا من جبال القوقاز .

وقد سماه اليونان باسم " سى تهين " (   ) وذكر بنفس هذا الاسم فى كتابة داراليوش باسطخر . ولنا أن نجزم بأن هؤلاء هم الذين شكت غاراتهم الشعوب الجبلية الى غوروش ، فبنى السد الحديدى لمنعها .

<u>القبائل المنغولية واليواشية :</u>

تسمى هذه البقعة الشمالية الشرقية من الأرض ب " منغوليا " وقبائلها الرحالة ب " منغول " وتقول لنا المصادر الصينية ان أصل كلمة منغول ، هو " منگوك " (بالكاف الفارسية بعد النون) أو (منجوك) (بالجيم الفارسية) وفى الحالتين تقرب الكلمة من النطق العبرى " ماگوگ " (بالكافين الفارسيتين) والنطق اليونانى " مگاگ " (بالكافين الفارسيتين) . ويخبرنا تاريخ الصين عن قبيلة أخرى من هذه البقعة ، كانت تعرف باسم " يواشى " (Yu eh i) والظاهر أن هذه الكلمة مازالت تحرف عند الأمم حتى أصبحت " يأجوج " فى العبرية .

منفوليا مهد الشعوب القديمة :

ان الجزء المرتفع من الكرة الأرضية الواقع فى الشمال الشرقى الذى يسمى الآن منغوليا وتركستان الصينية ، كان مهدا لشعوب قديمة لا تحصى . كان معينا بشريا تتدفق مياهه وتتجمع ، حتى اذا بلغت النهاية ، طفت وانصبت الى الغرب والجنوب .

وجدت الصين فى الشرق منه ، وآسيا الغربية والجنوبية فى غربه وجنوبه ، وأوربا فى الشمال الغربى منه ، فما زالت سيول القبائل والشعوب تتدفق ، فيستوطن بعض القبائل آسيا الوسطى والبعض الآخر يتقدم فيصل الى أوربا ، أو ينزل بآسيا الغربية والجنوبية .

وكانت هذه القبائل بعد خروجها من مسقط رأسها ، وحط رحالها فى البلاد الجديدة ، تفقد خصوصياتها الأولى وتصطبغ بصبغة أوطانها الجديدة ، فتصير على مرور الأيام شعوبا بنفسها . ولكن كان موطنها القديم لا تتغير أحواله ، ولا تزال تنشأ فيه قبائل جديدة وتتدفق فى دورها الى الخارج كأخواتها السابقة .

لا تتغير هذه البقعة بل تظل على همجيتها القديمة ، ولكن الذين كانوا ينزحون منها ويسكنون البلاد الأخرى ، يتحضرون مع مر الزمن ، فتختلف حالتهم الجديدة عن الحالة القديمة ، فبينما كانت المدنية تهذبهم وتزيل بربريتهم فيشتغلون بالزراعة والصناعات ، ويعيشون عيشة سهلة هنية ، كان اخوانهم فى مسقط رأسهم يظلون على حالتهم الأولى من الهمجية والخشونة والقسوة ، ولذلك يظلون شبحا مخيفا للمتحضرين .

الأدوار السبعة لخروج يأجوج :

يسهل علينا أن نقسم زمن خروج هذه القبائل الى سبعة أدوار:

فالدور الأول منها كان قبل العصر التاريخي عندما بدأت هذه القبائل تهاجر من الشمال الشرقي ، وتنتشر في آسيا الوسطى .

وكان الدور الثاني في فجر التاريخ ، فنرى في ضوئه معالم حياتين مختلفتين : حياة البداوة وحياة الاستقرار فتخلد القبائل المهاجرة الى السكينة ، وتباشر الحياة الزراعية ، الا أن سيولا جديدة لا تزال تتدفق من الشرق . ومدى هذا الدور من نحو سنة ١٥٠٠ ق . م . الى سنة ١٠٠٠ ق . م

ويبدأ الدور الثالث : من سنة ألف قبل الميلاد فنجد قوما همجا من البدو في بلاد الخزر والبحر الأسود . ثم نرى قبائل " سي تهين " أخذت تظهر على مسرح التاريخ من سنة ٧٠٠ ق . م . وتهاجم آسيا الغربية .

وكانت الحضارة الأشورية قد بلغت أوج مجدها ، وسادت مدنية نينوا وبابل على آسيا كلها . قال هيرودوتس " ان حدود الآشوريين الشمالية كانت عرضة لغارات قبائل " سي تهين " المستمرة ، وكانت هذه الحدود تمتد الى جبال أرمينيا ، فكانت قبائل سي تهين تجتاز مضيق القوقاز ، وتشن الغارات المدمرة على شعوب السهول ، حتى أن جموعا كبيرة منها تقدمت سنة ٦٢٠ ق . م ، ووصلت الى نينوا ، داست في طريقها ايران الشمالية . ويرى مؤرخو اليونان أن هذا الحادث كان من أهم أسباب سقوط نينوا (١).

أما الدور الرابع : فينبغي أن نجعله في سنة ٥٥٠ ق . م . ـ الزمن الذي ظهر فيه غوروش وتكونت مملكة مادا وفارس المتحدة ، فتغيرت الظروف فجأة ، وأمنت آسيا الغربية من هجمات قبائل سي تهين .

---

١ ـ هيرودتس ، ١ ـ ١٠٤

وكان الدور الخامس : فى القرن الثالث قبل الميلاد ، تدفق فيه سيل جديد للقبائل المغولية وانصب على الصين ، وقد سمى مؤرخو الصين هذه القبائل بـ " هيسونغ نسو " (Hsiung Nu) ، وقد حرف الاسم فأصبح " هن " فيما بعد .

وفى هذا العصر بنى امبراطور الصين ، شين هوانغ تى ، ذلك الجدار العظيم الذى اشتهر بجدار الصين لصد هجمات هؤلاء المغيرين ، والذى لايزال يوجد الى يومنا هذا ، وقد بدأوا ببنائه سنة ٢٦٤ ق . م . وأتموه فى مدة عشر سنين . ولما صد هذا الجدار حملات المغول من الشمال والغرب توجهوا الى آسيا الوسطى من جديد .

وكان الدور السادس : فى القرن الرابع الميلادى عندما رفعت هذه القبائل رأسها فى أوربا بعد أن حظيت بقائد كبير ، هو اتيلا ( ) وقضت على الامبراطورية وعلى المدنية الرومانية معا .

وقد كان الدور الأخير ــ الدور السابع ــ فى القرن الثانى عشر الميلادى فاحتشدت جموع عظيمة من القبائل فى بلاد منغوليا ، وخرجت بزعامة جنكيز خان فقضت على الحضارة العربية وخربت بغداد ــ مدينة السلام .

فتعلم مما سبق أن معظم آسيا الغربية كانت عرضة لهجمات قبائل سى تهين المغولية من القرن السادس قبل الميلاد ، وأن الزمن الذى وقفت فيه هذه الهجمات بغتة ، هو زمن غوروش ، فلابد من أن تكون هذه القبائل (سى تهين) هى التى سميت باسم يأجوج ومأجوج ، ولصد غاراتها بنى ذو القرنين ،أى غوروش ، السد الحديدى فقفل هذا السد الطريق الذى كان يسلكه هؤلاء الهمج لشن غاراتهم على آسيا الغربية ، فأصبحنا لا نسمع لهجماتهم خبرا بعد .

من أى طريق كانت هذه القبائل تشن غاراتها ؟ يخبرنا مؤرخو اليونان بأنه كان مضيقا فى جبال القوقاز ، وقد ظل هذا المضيق بابا مفتوحا على المغيرين زمنا طويلا ، فان كان غورش يريد صون آسيا الغربية من غاراتها ، فما كان له الا أن يسد هذا الباب ، وقد فعل ذلك ببناء سده الحديدى .

نبوءة حزقئيل ويأجوج ومأجوج :

ظهر النبى حزقئيل فى الزمن الذى كان اليهود يحيون حياة الأسر فى بابل ويقول التاريخ اليهودى بأن بخت نصر هو الذى جاء بحزقئيل الى بابل مع قومه اليهود فعاش الى زمن غورش . وقد وجدت فى السفر المنسوب اليه نبوءات خوطبت بها الشعوب المختلفة ، منها نبوءة فى شأن يأجوج ومأجوج كذلك وهى كما يلى :

" وصلنى كلام الرب قائلا ، يا ابن آدم ول وجهك شطر جوج وتنبأ ضده ، نعم شطر جوج الذى هو رئيس أرض مأجوج ، ومسك وتوبال ، فقل له ، ان الرب يقول لك ، انى أصبحت ضدك وانى أبدلك ، وأجرح فكيك ، وأطرد جميع جندك وفرسانك الذين يرتدون الملابس العسكرية ، ويحملون السيوف والتروس ، وأطرد معهم الفارس ، وكوش والقوط كذلك "

ويلى هذا من التفاصيل ما يتلخص فى أن جوج يقدم من الشمال ناهبا مدمرا ولكن يحل بالقوم الدمار ، فيهلكون فى " وادى المسافرين " الواقع فى شرق البحر ، وتبقى جثثهم تتعفن الى زمن طويل ، ثم يدفنها الناس ليخلو لهم الطريق (٣٨ : ٣٩)

وصف جوج فى النبوة بأنه رئيس "مسك " و " توبال " فكأن النبوءة صورت موقع " مى تهين " الجغرافى بهذا الوصف ، فليس " مسك " الا ما نسميه الآن بموسكو ، أما توبال ، فهى بلاد البحر الأسود المرتفعة .

ثم جاء فى النبوءة " انى أردك " وهذا هو ما وقع على أيدى غورش ، فانه أقفل

الطريق بسده على قبائل سن تهين ، فارتدت الى وراءها ، ثم قال : ان جيش ماجوج كله يخرج ، وكذلك يبرز جيش فارس ، ويشترك معه القوال (غاله) أيضا ، ويكون هلاك ماجوج فى " وادى المسافرين " وهذا هو عين ما وقع عند ما هاجم داراپوش ، بلاد اوربا ، فقد خرجت لمحاربته جموع قبائل سن تهين ، ولكنه تقدم الى الدانيوب بعد أن قتلهم شر تقتيل ، وبقيت جثث المقتولين منهم تتعفن على ساحل البحر الأسود لمدة من الزمن .

ذكر كل هذا فى صحيفة حزقئيل كنبوءة ، الا أن البحاثة المسيحيين يرون أنه ألحق بها بعد ما شهد العالم هجوم داراپوش وما تبعه من الحوادث . وقد ذهبت طائفة من شراح التوراة فى العصر الحاضر الى أن المقصود من ماجوج ، هو قبائل سن تهين (1) .

سد يأجوج ومأجوج :

لنبحث الآن عن المكان الذى أقام به غوروش سده .

توجد فى البقعة الواقعة بين بحر الخزر والبحر الأسود سلسلة جبال قوقاز كأنها جدار طبيعى . وقد سد هذا الجدار الجبلى ، الطرق الموصلة بين الشمال والجنوب الا طريقا واحدا بقى مفتوحا ، وهو مضيق فى وسط سلسلة الجبال ، يوصل بين الشمال والجنوب . ويسمى هذا المضيق فى أيامنا هذه بمضيق داريال ، ويشار الى موضعه فى الأطالس الحاضرة بين فولادى كيوكز (Vladikavkaz) وتفليس ، حيث يوجد الى الآن جدار حديدى من قديم الأزمان .

ولاريب أن هذا هو الجدار الذى بناه غوروش ، اذ تنطبق عليه الأوصاف التى وصف بها القرآن سد ذى القرنين قائلا انه استخدمت فى بنائه زبر الحديد " تطعمه"

---

1 _ See Encyclopedia Britannica and Jewish Encyclopedia

وأفرغ عليه النحاس بعد أن أذابوه لتتصل مفاصله فلا يبقى به خلل ، وقال انه بنى بين جدارين جبليين .

وهذا هو ما نراه فى مضيق داريال : جدارين جبليين شاهقين أقيم بينهما هذا السد الحديدى الذى أقفل باتصاله بالجدارين الطريق الذى كان مفتوحا بينهما .

وان الكتابات الأرمنية لها أهمية كبيرة فى المسألة لانها لقرب المكان أصبحت بمنزلة الشهادة المحلية ، وقد سمى هذا السد أو الجدار الحديدى فى اللغة الأرمنية من الدهور السالفة بـ " بهاك غورائى " و " كابان غورائى " ومعنى الكلمتين واحد ، وهو " مضيق غوروش " أو " ممر غوروش " . ولا يخفى أن " غور " جزء لاسم غوروش بلا ريب أفلا يثبت هذا أن غوروش هو الذى بنى الجدار ، واليه نسبوه من قديم الزمان ؟

وهنالك شهادة أخرى لا تقل فى أهميتها عن الأولى ، وهى شهادة لغة بلاد جورجيا التى هو القوقاز بعينها ، فقد سمى هذا المضيق باللغة الجورجية من الدهور الغابرة بـ " الباب الحديدى " وترجمه الأتراك الى لغتهم بـ " دامركبو " وهو مشهور الى الآن عندهم (١) .

أما المؤرخون القدماء ، فأول من ذكره منهم ، هو الرحالة اليهودى الشهير يوسف الذى كان عائشا فى القرن الأول الميلادى ، ثم ذكره بعد أن عاينه بنفسه المؤرخ بروكوبيس (Procopius) فى القرن السادس الميلادى ، وذلك أن القائد الرومانى بلى ساريس (Belisarius) لما أغار على هذه الجهة فى سنة ٥٢٨ م كان الرجل معه فشاهد الأرض وما عليها .

وقد سبق لنا أن أشرنا الى " نهر سائرس " الذى يثبت وصول غوروش الى هذه البقعة ، فهنالك فى القوقاز أنهار تنبع كلها من هذه الجبال . وقد سمى واحد منها بنهر سائرس أى غوروش . وقد وثقت المصادر الأرمنية والجورجية هذا الاسم ، وذكره كذلك بعض السياح الأوربيين من القرن السادس عشر .

---

١ ـ ألف الكاتب التركى وأستاذ التركية والفارسية فى سنت بطرسبورغ ، كاظم بك فى سنة ١٨٤٥ تاريخا لهذه الجهات باسم " دربند نامه " وترجم الكتاب الى الانجليزية باسم تاريخ دربند ، فراجعه ص ٢١

فهذا انتونى جن كنسن (Anthoni Jinkinson) الذى أرسلته شركة تجارية فى لندن الى ايران من طريق روسيا سنة ١٥٥٧ م ، وهو يذكر هذا النهر فى رحلته بانه يسمى بنهر سائرس (١) .

ثم ان جميع الخرائط التى وضعت لهذه الجهات فىالقرن الثامن عشر ، ذكرت " نهر سائرس " هذا بصراحة تامة .

جدار دربند الحجرى وباب الأبواب :

ويوجد هنالك عدا جدار " مضيق داريال " الحديدى ، جدار آخر من الحجر فى نفس هذه البقعة ، وبوجوده تعقدت المسألة بعض التعقد ، فلابد من معالجتها .

توجد على ساحل بحر الخزر الغربى بلدة ، اشتهرت من العصر الساسانى باسم " دربند " وسمتها العرب ب " باب الأبواب" وهى واقعة فى نفس المكان الذى انتهت اليه سلسلة جبال القوقاز واتصلت بساحل بحر الخزر ، وقد وجد هاهنا جدار حجرى من الزمن القديم ، يمتد من ساحل البحر ، ويرتفع على منحدرات الجبل صاعدا الى مرتفعاته ، حتى يبلغ طوله نحو ثلاثين ميلا .

وتفصيل ذلك أنك تجد قبل وصولك بلدة دربند ، جدارا يسد الطريق كله من الساحل الى مرتفعات الجبل ، فلا يمكنك الدخول فى البلدة الا من باب فى الجدار نفسه ، وكذلك اذا خرجت من البلدة ، وجدت جدارا آخر مثل الأول يسد الطريق ، الا أنه به كذلك باب يمكنك من التقدم ، ويمتد الجداران جنبا لجنب الى مرتفعات الجبل ، وينقص الفصل بينهما كلما تقدما ، حتى يصبح عند الساحل مسافة يارد . وفى هذا الفصل تقع البلدة ثم ينقص الفصل بعد ميلين كذلك فلا يجاوز مائة يارد وهنا تنتهى سلسلة الجدارين فيصيران جدارا واحدا .

ويمتد هذا الجدار الى ثمانية وعشرين ميلا ، وينتهى على المرتفعات العالية من الجبل . وقد اشتهرت سلسلة الجدارين عند الفرس باسم " دوبارة " والمكان الذى انتهت اليه هذه السلسلة أقيمت فيه قلعة .

وقد سدت هذه السلسلة جميع الطرق الموصلة بين الشمال والجنوب سدا محكما لأنها توغلت الى داخل البحر فسدت طريق الساحل كلية ، ثم امتدت فوق الجبل الى ثلاثين ميلا ، فسدت سائر الطرق التى وجدت فى منحدرات الجبل سدا تاما وليس لأحد أن يخترق من الشمال الى الجنوب الا بطريق واحد وهو الطريق الذى يفتحه البابان فى سلسلة الجدار نفسه .

---

1 — Hakluz's Voyages, Vol. I, 456

ومن المحقق أن هذا الجدار العظيم وجد قبل الاسلام ، وسمى المكان فى العصر الساسانى بـ " دربند " لوجود الجدار به ، أى باب المملكة المقفل ، وقد ذكر الاصطخرى والمسعودى ، والمقدسى ، وياقوت الحموى ، والقزوينى وغيرهم من المؤرخين والجغرافيين العرب هذا المكان باسم " دربند " قائلين انه كان يعد أهم مكان فى العصر الساسانى لأن المغيرين ما كانوا يستطيعون مهاجمة ايران الشمالية الا من هذا الطريق ، فكان المكان مفتاحا للمملكة الايرانية ، يملكها من الذى يملكه (١) .

ولما فتح العرب هذه الجهات فى القرن الأول من الهجرة ، أدركوا أهمية المكان كالساسانيين ، فدعوه به " باب الأبواب " عوضا من " دربند " وسماه البعض " باب الخزر " أو " باب الترك " لأنه كان الطريق لغارات هذه الشعوب ، والاسم ترجمة حرفية لاسمه الروسى " كاسبين بورتا " أى " باب الخزر " .

من الذى بنى جدار دربند ؟

ولننظر الآن من الذى بنى جدار دربند ؟

ان مفسرينا لما كانوا يجهلون سد مضيق داريال ، وكان هذا الجدار أمام أعينهم جزم بعضهم بدون ترو بأنه هو سد ذى القرنين ، كما فعل البيضاوى وغيره ، واليه ذهب الرازى كذلك ، وكان حريا بهم أن يروا هل ينطبق على هذا الجدار وصف من أوصاف سد ذى القرنين ؟ ولما كان الأمر ليس كذلك ، فلا يجوز أن يقال انه السد المذكور فى القرآن .

ويذكر القرآن أن ذا القرنين وصل الى مكان قام على جانبيه جداران جبليان فهل يوجد فى دربند جداران جبليان ؟

ويقول أن ذا القرنين طلب زبر الحديد وأذاب النحاس ، ولكن جدار دربند مبنى من الحجر ، ولا وجود فيه للحديد ولا للنحاس .

---

١ — ذكر جغرافيو العرب هذا المكان باسم " دربند " الا انه كان اشتهر باسم " باب الابواب " فألف بعض الكتاب هذا الاسم ، وقد ذكره ياقوت فى معجم البلدان بهذا الاسم و " بند " مشهورة بأنها بمعنى " أغلق " فيقولون " دروازة بند " بمعنى اغلق الباب أو الباب مغلق .

وفوق ذلك بنى ذو القرنين سده بين جدارين جبليين ، ليسد به الطريق بينهما ،
ونجد هنا فى دربند جدارا ممتدا الى ثلاثين ميلا ، ولا يسد ممرا جبليا مثل يمتد
من ساحل بحر الخزر الى مرتفعات الجبل أى انه بين ساحل البحر والجبل لا بين جبلين .

ولكن لما وجد جدار مضيق داريال أو سده وجدار دربند فى بقعة واحدة من الأرض ، لا
تفصل بينهم الا مسافة قليلة اختلط الأمر على الناس . ومما يثير العجب أن بعض
المؤرخين المصريين كذلك وقعوا فريسة باردة لهذا الخلط .

<u>نسبة الجدار الى الاسكندر والأشكال التاريخى :</u>

ذهب مؤرخو العرب بناء على الروايات الساسانية الى أن الذى بنى هذا الجدار
ـ جدار دربند ـ هو أنو شروان ، فقد ذكر المسعودى والحموى تفاصيل البناء ونقل
عنهما المؤرخون بعدهما (١) .

ولكن يوجد هنا اشكال ، وهو أن المؤرخ يوسف الذى كان عائشا فى القرن الأول
ميلادى ، وبروكوبيس (   ) الذى وجد فى القرن السادس الميلادى
قد ذكرا جدارا فى هذه الجهة ، كما أشرنا اليه آنفا غير أنهما يقولان كذلك ان الذى
بناه هو الاسكندر المقدونى ، فى حين أن حوادث الفتح الاسكندرى معروفة وليست بخافية
عن التاريخ ، ثم يثبت قط أن الاسكندر قدم الى هذه الجهة او بنى جدارا بها ، ومن
المعلوم أن مثل هذه الحصون والمعاقل لا تشيد الا اذا دعت اليها الدواعى الدفاعية .

ومن المعلوم كذلك أن الاسكندر لم تصادفه داعية كهذه فى سائر حروبه . صحيح
ان هذه البقعة كانت تابعة للامبراطورية الايرانية . ولكنه هاجمها من طريق الشام
وتوجه من ايران الى بنجاب (الهند) . ولما قفل راجعا من بنجاب دهمه الموت فى
بابل . فما هى الظروف التى اضطرته ـ والحالة هذه ـ الى تشييد مثل هذه المعاقل
فى بلاد القوقاز ؟ وان كان شيدها ، فمتى كان ذلك ؟ ولماذا أغفل جميع مؤرخيه
ذكر حادث هام كهذا الحادث ؟

ثم هنالك اشكال آخر . ان كان جدار قوقاز بناه أنو شروان ، فكيف يكون ذلك ؟

---

١ ـ مروج الذهب ص ٢٠

لقد أجمع المؤرخون على أن عصر أنوشروان كان من سنة ٥٣١ م الى سنة ٥٧٩ م ، وعلى ذلك لا يمكن أن يكون بنى شيئا قبل هذا الزمن ، ولكن يوسف يذكر الجدار فى القرن الأول وبروكوبيس يشهد بوجوده فى سنة ٥٢٨ م ، فعلم من هذا أن أنوشروان لم يبن هذا الجدار .

وقد زار هذه الجهة المؤرخ الأمريكى المصرى ، ا . ف . وى . جيكسن فى سنة ١٩٠٤ فضعف رواية يوسف فى رحلته واقترح من عنده قائلا ، لم يشيد الاسكندر هذه الحائط ، ولكن بناها بعض قواده . ثم انهم ربما زادوا فيها فى العصر الساسانى !

هذا كلام مردود ، يرد على نفس الأساس الذى رد عليه قول القائلين بأن الاسكندر بناها . وذلك لأنه ان كان شيدها بعض قواد الاسكندر ، فمن كان هو ؟ ولماذا شيدها ؟ ولم أهمل مؤرخو ذلك العصر ذكر هذا الأمر الهام ؟ لقد وجدت رواية ـ مهما كانت واهية ـ فى شأن الاسكندر ، ولم يوجد شىء مثل ذلك فى شأن قواده أبدا .

نشأ هذا التعقد كله لأن الناس لم يميزوا بين جدار مضيق داريال وجدار دربند ، فاختلط الأمر عليهم . لقد كان مفتاح المعضلة فى القول بأن الذى بنى الجدار الأول ـ جدار مضيق داريال ـ هو غوروش ، ولكن الناس لم يفطنوا لذلك ، فأخذوا ينظرون تارة الى الاسكندر وقواده ، وتارة أخرى الى أنوشروان ، وكان جديرا بهم أن ينظروا الى غوروش الذى هو صاحب الجدار ، لا غيره .

حل المشكلة :

يوجد فى البقعة جداران ، ليس من الضرورى أنهما بنيا فى زمن واحد . فأول ما ينبغى لنا أن نفعله ، هو أن نقرر أى جدار ذكره المؤرخ يوسف وبروكوبيس : أهو جدار مضيق داريال أم جدار دربند ؟ فان كان هو جدار دربند ، فلا يمكن أن يكون بناه أنوشروان .

فاذا نظرنا الى الشواهد التاريخية من هذه الوجهة ، يتجلى لنا أن يوسف وبروكوبيس لا يقصدان بما ذكراه ، جدار دربند ، بل انما يريدان به جدار مضيق داريال الذى

بناه غوروش فى القرن الرابع قبل الميلاد ، أى قبل يوسف بنحو خمسمائة سنة ، وقبل بروكوبيس بألف سنة ، الزمن الذى لم يكن لجدار دربند فيه أثر ولا خبر . أما الجدار الذى ذكره المؤرخون بعد عصر يوسف وبروكوبيس ، وهو الذى سمى بجدار الخزر كذلك ، فهو بلا ريب جدار دربند ، لأن مضيق جدار مضيق داريال ، لا يمكن أن يطلق عليه اسم جدار الخزر بحال .

لقد ارتفع الاشكال الآن بدفع هذه الشبهة الطفيفة التى تتعلق بكون أوشروان هو الذى بنى الجدار ، ولم تبق حاجة لتضعيف ماقاله مؤرخو العرب الذين كتبوا ماكتبوا مستندين الى روايات العصر الساسانى . وقد أطنبوا فى ذكر تفاصيل البناء ، فذكروا مثلا كيف وضع أساس الجدار فى داخل البحر ، وما هى الوسائل التى لجأ اليها البناءون لذلك . ليس منا أن نرتاب فى صحة ماذكروه والاقرب الى الصواب أن أنوشروان هو الذى بنى جدار دربند ، وأن هذا الجدار ماكان يمكن أن يوجد فى عصر بروكوبيس الذى زار المكان قبل أنوشروان بثلاث سنوات .

ولك أن تقول ، ان كان الأمر كما ذكرت ، فلماذا نسب يوسف وبروكوبيس جدار مضيق داريال الى الاسكندر ؟ . والجواب أنهما اما خدعا بالشهرة العامة أو وقعا فريسة للشبهة التاريخية .

لقد راجت أساطير كثيرة بعد فتوح الاسكندر فى عامة الناس ، فاعتادوا أن ينسبوا اليه الاعمال العجيبة ، والأمور الخارقة للعادة ، وقد تسربت هذه الأساطير الى الكتب التى ألفت فى سيرة الاسكندر ، ولما ترجمت هذه الكتب الى العربية ، راجت الأساطير بين المسلمين كذلك فالنظامى لما ألف منظومته ((سكندرنامه)) استخدم هذه المادة ، وجعل من التاريخ قصة ممتعة ، فيغلب على الظن أن أسطورة كانت اشتهرت فى شأن مضيق داريال الحديدى كذلك ، فنقلها يوسف وحذا حذوه بروكوبيس ، ولذلك نجد المؤرخين غيرهما يذكرون معاقل هذه الجهة ولكن لا ينسبونها الى الاسكندر ، فهذا تسى تسى (Tacitus) وليدس (Lydus) يقولان بأن الرومان يسمون المكان بباب الخزر ، دون أن يزعما أن الجدار أو المعاقل شيدت فى عصر الاسكندر .

ثم أن بعض المؤرخين وقعوا فى خطأ عظيم بشأن جبال القوقاز ، ذكره استرابو فى جغرافيته ونعنى بذلك أنهم توهموا الجبال الواقعة فى شرق بحر الخزر بأنها

جبال القوقاز ، فنسبوا الى تلك جمع خصوصيات هذه الجغرافية • لاريب أن الاسكندر مر بتلك الجبال فى طريقه الى الهند ، وأقام بها مدة • ولا يبعد أن يوسف ـ بناء على هذا الوهم ـ ظن أن الاسكندر قدم الى بلاد القوقاز أيضا ، فبنى هذا الجدار باسمه • وقد أصاب المستر جيكسن فى قوله • ربما كان هذا الوهم هو أساس الرواية القائلة بأن الاسكندر شيد الجدار •

والحاصل ان التفاصيل المقدمة قد أزالت الاشكالين معا •

الحالة السياسية فى القرن السادس وأهمية دربند :

ثم نرى هنا أمرا واضحا جليا وهو أن الاسكندر ما كان يهمه أمر حدود ايران الشمالية والدفاع عنها • أما أنو شروان فكان يهمه ذلك ، ولذا اضطر الى تشييد جدار دربند •

لقد كان فى عصر غوروش أكبر خطر على آسيا الغربية من جهة قبائل مى تهين ، وكان طريق غاراتهم من مضيق داريال • ولكن الوضع الجغرافى تغير بعد ألف عام ، فلم يبق خطر من قبل مى تهين ، ولكن حلت محله أخطار أخرى ، كان أكبرها من جهة الامبراطورية الرومانية الشرقية فى بيزنطة التى كانت تنافس الامبراطورية الفارسية ، وتحاول القضاء عليها • وهى لم تكتف بطرق آسيا الصغرى المطروقة فى حروبها ، بل كانت تطرق هذا الطريق كذلك • ثم كانت هنالك القبائل التركية فى سهول بحيرة بوال وبحر الخزر التى انتشرت جماهيرها فى الشمال ، وكانت هى تهاجم الجهات الشمالية من الامبراطورية الفارسية فكان لزاما أن يحصن هذا المكان باهتمام كبير ، وعلى ذلك شيد أنو شروان ، جدار دربند وسد به هذا الطريق على وجه المهاجمين •

x x x x x x x x x

x x x x x x x

x x x x x

x x x

x

ملحق ج

المرافعة التي ألقاها أمام المحكمة الانجليزية

ملحـــــق "ج"

المرافعـــة التى ألقاها أمام المحكمة الانجليزيـــة

هذا هو نص المرافعة التى ألقاها أمام المحكمة التى كانت تحاكمه بتهمة اثارة الشعب نحيى معها ومع مولانا أزاد أخطر وأجرأ ساعات من أيام وسنى جهاده وبطولته .

قال : وكأنه يخاطب الأجيال ، ويلقى درسا بليغا لكل من ينشد كرامته وكرامة بـــلاده ولا يبالى بما يدفعه من ثمن :ـ

أيها القضـــاة :

انى كنت عازما على ألا أقدم للمحكمة بيانا ما ، لأنها مكان لا رجاء لنا فيه ، ولا طلب منه ،ولا شكوى اليه ، وانما هى كمنعرج الطريق الى المنزل ، لابد من قطعه للسابل، ولذا نقف فيه وقفة على كره منا ، والا لدخلنا السجن توا .

ان الجمعية الوطنية ، وجمعية الخلافة ، وجمعية العلماء ، قد أبحن تقديم بيـان الى المحاكم ، لا للدفاع بل لاعلام الأمة بالحقيقة ، بيد أنى ما برحت أشير على النــاس بأن يؤثروا الصمت على الكلام ، وأن يقاطعوا المحاكم مقاطعة تامة ، وذلك لأنى أرى أن كل من يقدم بيانا لدحض التهمة وكشف الحق ـ وان كان قصده به اعلام الجمهور ـ لا يسلم من الظنة اذ يجوز أن يكون فى نفسه أدنى هوى للتخلص من العقاب ، أو فى أعماق قلبه أقل رجاء فى عدل المحاكم ، مع أن سبيل ((تارك التعاون)) مستقيم منير ، لا ينبغى أن توسخه الظنون والشبهات .

<u>اليأس التام من العـدل :</u>

ان ((اللاتعاون)) نتيجة لليأس التام من الحالة الحاضرة ، وهذا اليأس هو الـذى ألجأ الأمة الى أن تغيرها ، وتبدل غيرها بها ، فكأن من يقاطع الحكومة ويأبى معاونتهـا ، يعلن بأنه يئس من عدلها وحبها للحق ، وأنه لا يعترف بها ، بل يعدها حكومة غاصبـة جائرة وغير شرعية . لهذا يود أسقاطها وتحطيمها . أفبعد هذا يرجع القهقرى ، فينتظـر منها أن تنصفه كحكومة عادلة صالحة للبقاء والدوام ؟ .

وان غضضنا الطرف عن هذه الحقيقة الثابتة ، فان السعى للتبرئة من التهمة ، ليس الا عملا عبثا وانكارا للحقائق . اذ كل بصير يعلم أنه لا رجاء فى المحاكم أن تنصف وتعـدل فـى

العالة الحاضرة ، لا لأن رجالها لا يحبون العدل بل لأنها سائرة على نظام لا يستطيع معه حاكم أن ينصف أولئك الذين لا تريد الحكومة نفسها أن تنصفهم !

وانى ههنا أصرح بأن خطاب ((اللاتعاون)) ليس مع الأفراد والآحاد ، بل مع الحكومة ونظامها ومبادئها .

موقف أصحاب الحق أمام المحاكم والقضاة

ان هذه الحالة مثل سائر حالات عصرنا ليست بفذة ، فالتاريخ شاهد على أنه كلما طغت القوات الحاكمة ، ورفعت السلاح فى وجه الحرية والحق ، كانت المحاكم آلات مسخرة بأيديها تفتك بها كيف تشاء . وليس بغريب فان المحاكم تملك قوة قضائية ، وتلك القوة يمكن استعمالها فى العدل والظلم على السواء . فهى فى يد الحكومة العادلة أعظم وسيلة لاقامة العدل والحق وبيد الحكومات الجائرة أفظع آلة للانتقام والجور ومقاومة الحق والاصلاح .

والتاريخ يدلنا على أن قاعات المحاكم كانت مسارح للفظاعة والظلم ، بعد ميادين القتال ، فكما أريقت الدماء البريئة فى ساحات الحروب ، حوكمت النفوس الزكية فى ساحات المحاكم ، فشنقت وصلبت وقتلت وألقت فى غياهب السجون .

وليس هناك عصبة صالحة محبة للحق من الأنبياء والحكماء والعلماء والصالحين ، الاونراها قد وقفت كالجناة والمجرمين فى قاعات المحاكم أمام القضاة .

نعم ان كر الأيام ومر المشى قد محا كثيرا من مساوىء العهد القديم ، فلا يوجد الآن شىء من المحاكم الرومية للقرن الثانى المسيحى . ولا محاكم التفتيش السرية ، التى كانت فى القرون المتوسطة ، ولكنى لا أستطيع الاعتراف بأن عصرنا هذا قد نجا من تلك العوامل النفسية التى كانت تعمل فى تلك المحاكم .

حقا ان تلك الأبنية التى كانت مكامن للأسرار الرهيبة قد دكت دكا . ولكن من ذا الذى يقدر أن يقلب تلك القلوب التى تكمن فيها الأسرار المخيفة لحب الذات والظلم ؟ .

قصص عجيب ولكنه عظيم :

ان جدول مظالم المحاكم وفظائعها طويل عريض . تلك المظالم التى لم يفرغ التاريخ الى الآن من البكاء منها ، فنرى فيه اسم المسيح (عليه السلام) الانسان الكامل الذى أوقف مع اللصوص فى محكمة أجنبية .

وسقراط الحكيم الذى اضطر الى شرب كأس السم ، لأنه كان أصدق رجل فى بلاده .

وكذا فلورنس غيليلو الذى لم يكذب مشاهداته العلمية ، لأنها كانت جناية فى عين القضاة والمحاكم .

وقد وصفت المسيح بالانسان الكامل لأنى أعتقد أنه انسان . ولكن الملايين من الناس يعتقدون أنه فوق هذا ..

اذن ما أعجب قفص الجناة .. وما أعظم شأنه .. انه موقف للصنفين معا (الأبرار والأشرار) حتى أنه كان لائقا بهذا الوجود العظيم ..

حمدا وشكرا

وانى اذ أتدبر التاريخ العظيم لهذا الموقف ، وأرانى قد شرفت بالوقوف فيه ، تسبح روحى بحمد الله ، ويلهج لسانى بشكره من غير قصد منى ، وهو وحده يعلم ما أجده من الجذل والابتهاج ، اذ أحسبنى فى هذا القفص محسودا للملوك والسلاطين العظام ، فأين لهم فى قصورهم المريحة تلك المسرة والراحة ، التى يرقص لها قلبى فى صدرى ؟ وياليت الانسان الغافل والعاكف على هواه يشعر بنفحة منها . وانى أقول حقا : انه لو أدركها الناس ، لتمنوا المثول فى هذا المكان ، ولنذروا النذور لأجله .

قانون الحقيقة

انى كنت عازما على السكوت فى المحكمة ، ولما أحضرت فيها ، ورأيت الحكومة تقدم فى اثبات جريمتى الخطبتين اللتين ألقيتا فى بعض مجامع (كلكتا) ، وهما لا يحتويان على جميع الأمور التى مازلت أكررها فى جميع خطبى ، ورسائلى ومقالاتى ، التى تمد و الحصر ، والتى ان قدمت كانت أنفع لمقصدها ، علمت أنها عاجزة حتى عن تهيئة ذلك المستند الذى يعتبر فى هذه الأيام كافيا لانزال العقاب ، مع شدة رغبتها وحرصها على سجنى ، فغيرت مقصدى ، وقلت بأن العلة التى كانت مانعة من الكلام أصبحت موجبة له . فأردت أن أثبت بلسانى الأمر الذى لا تستطيع الحكومة اثباته مع علمها به ، وشدة رغبتها فى اثباته .

وانى أعلم أن قوانين المحاكم لا توجبه على ، ولا تضطرنى الى الاعتراف من تلقاء نفسى .

ولكن قانون الحقيقة فوق هذه القوانين الوضعية ، وهو الذى يسوقنى الى ما سأقوله ، اذ ليس من الحق أن نذر شيئا مستورا ، لأن الخصم لا يستطيع اثباته •

سنة تنازع البقـــاء :

ان الاستبداد الذى ابتليت به الهند ، نوع من ذلك الاستبداد الذى يصيب الأمم فى طور ضعفها ووهنها • وهو من طبعه يبغض الحركة الوطنية والحرية ، والمطالبة بالحقوق بغضا شديدا ، لأنه يعلم انها اذا نجحت سقطت قوته الظالمة وانمحى وجوده الفاحش •

وما من وجود يحب سقوط نفسه وزواله مهما يكن زواله ضروريا فى عين الحق والانصاف ، فالتدافع بين الحرية والاستبداد ، (تنازع للبقاء) و (تزاحم فى الحياة) كل من الفريقين يجد للفوز والبقاء • الأمة تريد أن تنال حقها المغصوب • والاستبداد يأبى عليها ، ولا يريد الترحزح عن مقامه ، ولا تثريب عليه ، لأنه وان كان وجوده خلافا للحق — يدافع عن نفسه وحياته ، وليس لنا أن ننكر مقتضيات الطبيعة فكما يسعى الخير لبقائه ، يسعى الشر أيضا ، ومهما يكن ملوما فى نفسه ، لا يلام على رغبته فى الحياة •

وقد بدأ التزاحم فى الهند ، بين هاتين القوتين القويتين : الحرية والاستبداد — فليس ببدع أن تكون الحرية والمطالبة بالحقوق جناية فى عين الاستبداد • وأن يكون محاربو وجوده الباطل جناة وأثمة ، وأهلا للعقاب الشديد •

انـى أعـتـرف :

فما دام الأمر كذلك ، فانى أعلن على مسمع من المحكمة والحكومة بأننى أنا قد ارتكبت هذه الجناية ارتكابا ، واقترفتها اقترافا ، وان كانت الحكومة لا تعلم ، فلتعلم الآن أنى من أولئك الجناة ، الذين بذروا بذور هذه الجناية فى قلوب أمتهم ، ووقفوا حياتهم على سقيها وتنميتها وتثميرها •

بل انى — ولا فخر — أول مسلم فى الهند ، دعا أمته من اثنتى عشرة سنة الى هذه الجناية دعوة عامة ، وحول وجهتها فى خلال ثلاث سنوات ، عن العبودية التى كانت الحكومة زينتها لها ، الى الحرية التى قد اشرقت شمسها الآن ، ولن تنكسف أبدا •

فان كنت آثما فى زعمها فلتعاقبنى بما تشاء • فها أنذا معترف بالجناية بصدر رحب ، ولسان طلق ، غير جزع منها ، ولا نادم عليها • لأن هذا هو ما كنت أتوقعه وأعرفه من قبل •

وانى لا أنتظر من الحكومة الا الغلظة والقسوة ، لأنى - وان ألفيتها تدعى العصمة من الخطأ والزلل ، ولا تعترف بذنوبها - أعلم أنها تدعى أبداً أنها مثل المسيح فى لينه وحنانه !! فاذن كيف أنتظر منها أن تقبل أعداءها وتحبهم كأصدقائها ؟ وأعلم أنها لا تعاملهم الا بتلك المعاملة التى نراها منها الآن ، والتى مازال الاستبداد يختارها لمحق الحرية والحق ، وخنق أصحابه وحماته .

فالشدة والغلظة من الحكومة شئ طبيعى ، لا ينبغى لنا أن نشكو أو نغضب منه ، بل على كل من الحزبين أن يعملا على مكانتهما ، حتى يفصل الله بينهما وهو خير الفاصلين .

(ثم قال بعد هذا : انه لم يقبض عليه لأجل الخطبتين اللتين قدمتا الى المحكمة ، بل لتخلو للحكومة " كلكتا " كيلا يقاطع احتفال ولى عهد انجلترا عند قدومه اليها ، وتضعف الحركة الوطنية والاسلامية . ثم ذكر أشد مافى الخطبتين وهو مايلى :-

أشد ما فى الخطبتين :

ان الحكومة التى تأسست على الظلم لظالمة ، وهى اما أن تتوب من ذنوبها وفظائعها ، وتخضع للحق ، واما أن تزول من الوجود .

أيها الناس (ان كنتم تتألمون لاخوانكم الذين قبض عليهم فعلى كل منكم أن يسأل نفسه الآن . هل هو راض بأن تظل هذه الحكومة قائمة فى بلادنا ، كما كانت عند القبض على اخواننا ؟

اذا كنتم تريدون تحرير بلادكم من رق العبودية ، فلا يوجد الا طريقة واحدة ، وهى : أن لا تدعوا فرصة لأعدائكم المكارين لاستعمال أسلحتهم القتالة التى عندهم بغير حساب .

ان بعض الناس يظن أن الخطيب اذا فاه بمثل هذه الأقوال يحتاط لنفسه ، والا فانه بالحقيقة لا يقصد بها شيئا ، ولكنى أيها الاخوان أعتقد أنه ليس فيكم أحد يحسب أولئك الذين يحسبون لأجلكم خوافين من السجن أو الاعتقال ، أو مخلصين لهذه الحكومة الظالمة فى نفسها وقوتها ، حين يقولون : ان أعمالنا يجب أن تكون بالأمن والنظام .

لا ، لا ، أن هذا لا يتصور أبدا ، بل الحق الذى لا مراء فيه أنهم يقولون ذلك ، لأنهم يرون نجاحكم متوقفا على الأمن والنظام ، مادمتم لا تملكون تلك الآلات الجهنمية التى تتسلح بها هذه الحكومة ، وانما الأسلحة التى لديكم هى الايمان والضمير وقوة التضحية ، فاستعملوها فى

وجهها تتحويه ، والا فلا نجاح لكم بالأسلحة الماديـة ٠

أيها الناس : ان كنتم تريدون أن تعرقلوا الحكومة برهة من الزمان فطرق ذلك كثـيرة ، ولو كنت لا سمح الله — من المحبين للحكومة لبحثت بها ودعوتكم اليها ، ولكن الذى أريده منكم هو (الحرب الحرب) والحرب لا تنتهى فى يوم واحد ، بل تمتد الى يوم الفصل ٠ وما أدراكم ما يوم الفصل ؟ اليوم الذى اما أن تمحى فيه هذه الحكومة الجائرة ، واما أن تفنى ثلاثمائة مليون من النفوس البشريـــة ٠

الاعتراف فوق الاعـــتراف :

ان كانت هذه التصريحات جناية فانى معترف بأن قلبى قد اشتغل بها ، ولسانى نطـق بها ، وانى أنا الذى صرحت بها أمام عشرات الألوف من الناس ٠ ليس فى هاتين الخطبتـين فقط ، بل فى خطب أكثر من أن تعد وتحصى ، بل مابرحت أقول أكبر وأشد منها ، ذلك بأنـــى أعتقد أن التصريح بها واجب على ، ولم يمنعنى من أداء الواجب كونه معاقبا عليه بقانـــــون ١٢٤ من القوانين الهندية [١] بل انى لأجدنى الآن مدفوعا الى التصريح بها أمام المحكمة ، ولا أزال قائلا بها مادام لسانى بين أسنانى ، وروحى فى جثمانى ٠ وان لم أفعل ذلك أكـن ظالما لنفسى ، وعاصيا عند الله ، وعند الناس أجمعين ٠

الحكومـة الحاضرة (ظالمـــة)

نعم انى قلت أن الحكومة الحاضرة ظالمة ، وان لم أقل هذا فماذا أقول ياترى ؟ وأيم الله انى لأعجب كيف يطلب منى أن أسمى شيئا بغير اسمه ، وأن أدعو الأسود بالأبيض ؟

ان ماقلته هو أهون ما يجب أن يقال فى هذا الباب ، اذ لا أعلم حقيقة ملفوظة أخف منه ٠

لا ريب أنى مازلت أقول : انه ليس أمام الحكومة الا أن تتوب من آثامها ، وتغير خطتهـــا ، وترجع عن ظلمها ، فان لم تستطعه فبعدا لها وسحقا ٠ وليت شعرى ماذا يقال غير هــــذا ؟ الشر اما أن يصلح ، واما أن يزول ٠ وهل بينهما طريق آخر ؟ ٠

---

(١) مادة ١٢٤ خاصة بالذين يحرضون على كراهية الحكومة بأى واسطة من وسائط النشر والصور أو الكلام أو الخطابـة ٠٠٠٠ (المترجم) ٠

ان هذه الحقيقة قديمة العهد ،طويلة العمر ، لا يضاهيها فى الكبر الا الجبال والبحار ، وانى مادمت أعتقد أن هذه الحكومة من أولها الى آخرها شر على شر فكيف أدعو لها ، وأقول : دومى ولا تصلحى ؟ !!

لماذا أعتقد هذا ؟

نعم لماذا أعتقده أنا وملايين من أبناء وطنى واخوان دينى ؟ الجواب أصبح الآن واضحا جليا ، حتى يصح أن يعبر عنه بقول الشاعر الانجليزى (ملتون) : " أنه بعد الشمس أوضح شيء ، وأجلى محسوس " على انى أصرح ههنا بأنى أعتقد ذلك لأنى هندى ، ولأنى مسلم ، ولأنى انسان .

الحكم الشخصى ظلم بالذات :

انى أعتقد أن الحرية حق طبيعى لكل انسان ولكل أمة . فطرة الله التى فطر الناس عليها ، وليس لشخص ما أو حكومة أن تستعبد عباد الله ، وتتخذهم خولا (خدما) . وسم الاستعباد والرق بأى اسم شئت . غير أنه على كل حال استعباد ورق . ومشيئة الله وناموسه يمقتانه .

وانى لأجل هذا لا أعترف بالحكومة الهندية ، بل أعدها حكومة غير شرعية ، لأنها مستبدة طاغية ، استعبدت البلاد ، وقهرت العباد ، وداست الشرائع ، وخانت المواثيق ، ليسخطها الشعب ، ويمحها الحق ، فهى معدومة فى نظر الأمة ، وان كانت موجودة بقوة السلاح ، وأرى واجباتى الدينية والوطنية والانسانية تطالبنى بأن أحرر بنى جلدتى من رقها وعبوديتها الشائنة .

كلام خداع :

ولا يقاطع كلامى (بالاصلاحات الادارية) ، ولا الترقى التدريجى ، كلمات خطتها الحكومة وزخرفتها ، لتخادع البله والحمقى . أما أنا فلا أخدع بها ، ان الحرية فى اعتقادى حق طبيعى للانسان ،وليس لأحد أن يحدد ويقسم فى تأدية الحقوق . وان مثل الذى يقول أن أمة تنال حريتها تدرجا ، كمثل الذى يقول للدائن يرد اليك الدين قسطا قسطا . نعم ان لم يستطع أخذه دفعة واحدة ،يضطر الى قبوله بالأقساط ، ولكن لا يسقط به حق الأخذ مرة واحدة .

(الاصلاحات) وما هي (الاصلاحات) وان هي الا كما قال الفيلسوف الروسي (تولستوي) أن أبيح للمسجونين انتخاب سجانيهم بالأصوات ، فانهم لا يصيرون به أحرارا .

الحكومة الحاضرة حسنة أو قبيحة ؟ سؤال ثانوي .

أما السؤال الأساسي فهو : هل وجودها حق وشرعي ؟ .

انى لأعتقد أن مثل هذه الحكومة الأجنبية المتسلطة باعتبار أصل خلقتها غير شرعية ، لأن نفس وجودها ظلم وشر ، فهي لو لم ترتكب جميع تلك الفظائع التى ارتكبتها بهذه الكثرة ، لكانت في حد ذاتها ظالمة وجائرة ، ويكفي لقبحها وشناعتها أنها موجودة — نعم ، ولنعترف بحسناتها ان كانت لها حسنات ، ولكن يظل وجودها على كل حال ظلما وغير شرعي ومثاله لو تسلط أحد على بيتنا ، وأداره ادارة حسنة ، وعمل أعمالا صالحة ، فانه بهذه الحسنات لا يصير تسلطه حقا شرعيا !

ان الشر يصح أن ينعت ويقسم بالكم والكيف ، فنقول : كم هو وكيف هو ؟ ولكن لا يصح نعته وتقسيمه بالحسن والقبيح . فلا نقول : أحسن هو أم قبيح ؟ نعم يقال : سرقة قبيحة وسرقة أقبح ولكن لا يقال : سرقة حسنة وسرقة قبيحة !! وهكذا الاستبداد ، فانى لا أستطيع أن أتصوره حسنا وشرعيا في حال من الأحوال لأنه بذاته ووجوده قبيح وشر وغير شرعي .

نعم ، ربما يوجد نوع من الاستبداد أخف وطأة ، وأقل ظلما ، وأكثر لينا من غيره ولكن الاستبداد الذي دهم الهند لم يقف عند قبحه الخلقي ، بل مازال يكتسب السيئات فوق السيئات ومنكرات تلو المنكرات ، وظلمات بعضها فوق بعض ، فكيف لا يعلن ظلمه ، ولا يشهر بقبحه ، ولا يشدد النكير عليه ؟ .

الاسلام والاستبداد :

انى مسلم ، ولأنى مسلم وجب على أن أندد بالاستبداد وقبحه ، وأشهر بمساوئه ، وليعلم أن الاسلام لا يعترف بالحكومة الشخصية ، ولا بحكومة عصبة من الموظفين ينقدون رواتبهم ، لأنه نظام كامل للجمهورية ، وانه جاء ليرد الى النوع الانساني حريته المغصوبة التى كان اغتصبها الملوك المستبدون ، والحكومات الأجنبية ، والرؤساء الروحانيون ذوو الأهواء ، والرجال الأقوياء من الجماعة ، وقد كانوا يعتقدون أن الحق للقوة والتسلط والقهر والغلبة ، ولكن الاسلام بمجرد ظهوره أعلن أن الحق ليس فى القوة ، ولا هو القوة ، بل الحق هو الحق ، وأنه ليس لأحد من البشر أن يستعبد عباد الله

ويذلهم ويسخرهم ، ثم قضى على سائر الامتيازات والمناصب المؤسسة على الغلبة القومية والوثنية قضاء تاما ، وبين أن الناس كلهم متساوون فى الانسانية ، متساوون فى الحقوق ، متساوون فى الحياة ، وليس اللون أو الجنس والنسل معيارا للفضل والحسب ، وانما معياره العمل وحده ، فأعلاهم قدرا ، وأكرمهم حسبا أحسنهم عملا ، وأتقاهم لربهم (يأيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم) .

الاسلام نظام جمهورى :

ان الاسلام أعلن حقوق الانسان قبل انقلاب فرنسا بأحد عشر قرنا ، وليس مجرد اعلان ، بل وضع نظاما عمليا للجمهورية الحقة بالغا فى الكمال منتهاه ، ومتناسبا معه فى الاتقان كما قال المؤرخ الشهير (غيبون) ، فكانت حكومة نبى الاسلام وخلفائه الأربعة جمهورية كاملة ، تتشكل برأى الأمة وانتخابها ونيابتها ، ولذا توجد فى مصطلحات الاسلام كلمات جامعة لهذا الغرض ، لا توجد مثلها فى لغة ما ، حيث أنه لم يعترف بوجود ملك منصب ، وعوضه بمنصب لرئيس الجمهورية سماه بالخلافة ، وهى فى اللغة : النيابة ، وسمى صاحبها بالخليفة أى النائب الذى لا يملك قوة ولا نفوذا بنفسه ، كذلك اختار لنظام الجمهورية كلمة الشورى ، ووصف المسلمين بقوله (وأمرهم شورى بينهم) والشورى ضد الاستبداد ، تقرر به أن جميع أعمال الحكومة يجب أن تكون برأى الجماعة ومشورتها ، لا برأى شخص وحكمه ، فأى اسم للجمهورية ورئيسها ونظامها يكون أحسن وأجمع من هذه الأسماء الاسلامية .

البيروكريسى الوطنى والاسلامى ظلم أيضا :

فمادام الاسلام ينهى المسلمين عن قبول حكومة اسلامية لم تتشكل برأى الأمة وانتخابها ، فما تكون قيمة هذا (البيروكريسى) الأجنبى فى نظر المسلمين ؟ وهب أنه لو تقوم الآن فى الهند حكومة اسلامية على نظام شخصى أو تكون (بيروكريسية) لطائفة من الوطنيين ، فان الاسلام يوجب على أن أسميها أيضا ظالمة وجائرة ، وأسعى لخرابها ونقضها كما أفعل الآن .

وليست بدعا فى ذلك ، فعلماء الاسلام مازالوا يجاهرون بنقد الولاة ، ويحاسبون المستبدين من المسلمين أنفسهم ، وانى لأعترف بكل الأسف أن نظام الاسلام الجمهورى لم يعمل به طويلا ، بل أدخلت القيصرية والكسروية ولاة المسلمين ، فمالوا عن الطريق ، وآثروا التشبه بقيصر وكسرى ، واستنكفوا

من التشبه بأسلافهم الخلفاء الراشدين ، الذين عاشوا طول حياتهم فى ثياب رثة كآحاد الناس .
بيد أنه لم يخل عهد من أصحاب الحق الذين ناقشوا الملوك والسلاطين فى استبدادهم وتحملوا
جميع تلك المصائب التى صبت عليهم فى هذه السبيل بوجوه مستبشرة .

الوظيفة الملية للمسلمين اعلاء الحق واعلانـــه :

ولعمرى ان المطالبة من مسلم بأن يسكت عن الحق ، ولا يسمى الظلم ظلما ، مثل مطالبته
بأن يتنازل عن حياته الاسلامية . فان كنتم لا ترون لأنفسكم أن تطالبوا أحدا بأن يرتد عن دينه ،
فليس لكم أن تطالبوا مسلما بأن يمتنع عن قوله للظلم : أنه ظلم . لأن معنى كلتا المطالبتين واحد .

ان التصديق بالحق واعلانه عنصر ضرورى للحياة الاسلامية . فان فصل عنها فقدت أكبر مايمتاز
به . لأن الاسلام أسس قومية المسلمين عليه ، وجعلهم شهداء الحق على العالم كله ، فكما يجب
على الشاهد ألا يتوانى فى ابداء شهادته كذلك يتحتم على المسلم ألا يتتعتع فى اعلاء الحق ،
ولا يبالى فى أداء فرضه بمصيبة وابتلاء ، بل يصدع به حيثما كان ، ولولاقى دونه الحمام .

وتصير هذه الفريضة أوكد وأوجب عندما يسود الظلم والجور ، ويمنع الناس من اعلان الحق
بالعنف والشدة ، لأنه ان اجيز السكوت عنه خوفا من بطش الجبارين ، الذين يقطعون الألسنة ،
ويفتنون الأبدان بأنواع من العذاب ، يصبح الحق فى خطر دائم ، ولا يبقى لظهوره وقيامه من
سبيل ، مع أن ناموس الحق فوق القوة ، وليس يحتاج فى ثبوته الى تصديق القوة ، ولا يضره
سكوت الناس عنه قاطبة ، بل أنه يظل على كل حال حقا ، حقا عندما نجد فى سبيله ما نحب
ونشتهى ، وحقا عندما يكون دونه الموت الزؤام . وهل تصير النار بردا والثلج نارا لأننا نحبس
ونسجن ؟ !!

وجوب الشهادة بالحق وخطر كتمانهــــا :

لهذا أنبىء المسلمون فى كتابهم أنهم شهداء الحق فى أرض الله ، فالشهادة بالحق
والصدع به وظيفتهم الملية ، وديانتهم القومية التى ميزتهم عن سائر الأمم الغابرة والآتية ....
(وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس) وقال لهم نبيهم صلى الله عليه وسلم
" أنتم شهداء الله فى الأرض " .

فالمسلم مادام مسلما لا يستطيع كتمان هذه الشهادة ، وان حبس أو قتل ، أو ألقى جسده فى

النيران المتأججة .

وأخبر القرآن بأن من يكتم شهادته يبوء بغضب من الله ، ومأواه جهنم وبئس المهاد ، وكذلك انبأ أن الأمم الكبيرة لم تهلك الا لأنها كتمت الحق " ان الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون " وقال " لعن الذين كفروا من بني اسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ماكانوا يفعلون " .

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر :

ولذا نجد الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر من أكثر الفرائض الاسلامية ، وقد أخبر القرآن أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أساس لعظمة المسلمين وفخارهم القوى ، وأنهم خير الأمم لأنهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، وأنهم ان حادوا عنه يفقدوا سؤددهم ومجدهم الشامخ (كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله) وقال النبي عليه الصلاة والسلام (تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر والذى نفسي بيده لتأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عذابا من عنده ثم لتدعنه ولا يستجيب لكم (الترمذي) .

وأما أداء هذه الفريضة فعلى ثلاث درجات في ثلاث حالات مختلفة ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم (من رأى منكم منكرا فليغيره بيده ، فان لم يستطع فبلسانه ، فان لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الايمان) (رواه مسلم) .

وحيث أننا لسوء حظنا لا نقدر في هذه البلاد على تغيير منكرات الحكومة بأيدينا فاننا ننتقل الى الدرجة الثانية التي في وسعنا ، وهي : أن نعلن بألسنتنا ظلمها ومساوئها ، ونندد بمثاليها ونشهر بمعايبها .

الأركان الأربعة :

ان القرآن وضع أساس الحياة الاسلامية على أربع دعائم : (الايمان . العمل الصالح . التوصية بالحق . التوصية بالصبر) .

فالايمان والعمل الصالح معناهما ظاهر ، أما التوصية بالحق فهي أن يوصي كل منا أخاه

بالتزام الحق والتوصية بالصبر : هى أن يتواصيا بتجشم المهالك ، وتحمل النوازل فى سبيل الحق . وانما قرنت هذه بتلك لأن وقوع المحن والمشاق أمر لا مناص منه فى سبيل الحق (والعصر ان الانسان لفى خسر الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر) .

التوحيد الاسلامى والأمر بالمعروف :

التوحيد أساس الاسلام وقطب رحاه ، وضده الشرك الذى أشرب المسلمون بغضه فى قلوبهم . ومعنى التوحيد أن يوحد الله فى ذاته وصفاته ، والشرك أن يجعلوا له سبحانه شريكا فى ذاته وفى صفاته .

والتوحيد يعلم المسلمين أن الخوف والخشوع لا يكون الا لله الواحد العظيم . أما غيره فلا يخاف منه ، ولا يخشع له ، وأن من يخشى غير الله فهو مشرك به ، وجاعل غيره أهلا للخوف والطاعة ، وهذا ما لايجتمع مع التوحيد أبدا .

الاسلام من أوله الى آخره دعوة عامة الى التضحية والبسالة والجرأة والاستهانة بالموت فى سبيل الحق ، والقرآن يكرر هذا مرة بعد أخرى (ولا يخشون أحدا الا الله وكفى بالله حسيبا)(١) (من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش الا الله)(٢) (ولا يخافون لومة لائم)(٣) (انما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافون ان كنتم مؤمنين)(٤) (أليس الله بكاف عبده ، ويخوفونك بالذين من دونه ومن يضلل الله فما له من هاد)(٥) .

والرسول صلى الله عليه وسلم يقول (خير الشهداء حمزة بن عبد المطلب ، ورجل قام الى امام جائر فأمره ونهاه فقتله رواه الحاكم عن جابر على شرط الصحيحين ، وفى رواية (أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر) رواه أبو داود وابن ماجة والترمذى . وقد كان يأخذ العهد من أصحابه أن يقولوا الحق أينما كان ، كما رواه عبادة بن الصامت وأخرجه الشيخان .

---

(١) آية ٣٩ سورة الأحزاب .

(٢) آية ١٨ سورة براءة

(٣) آية ٥٤ سورة المائدة .

(٤) آية ١٧٦ سورة آل عمران .

(٥) آية ٣٦ سورة الزمر .

وقد أبيضت عين الدهر ولم ترمثل هذه الضحايا الكثيرة العظيمة فى اعلاء كلمة الحق التى قدمتها الأمة الاسلامية فى كل دور من حياتها • فتراجم علمائها ومشايخها وسادتها عبارة عن هذه الضحايا •

الا فلتعلم الحكومة الانجليزية أن المسلم الذى أمره ربه أن يرحب بالموت الأحمر • ويتغلغل فى اللجج الدواهى والكوارث • ولا يقبل السكوت عن الحق • لا يخيفه قانون ١٢٤ من العقوبات الهندية • ولا يرده عن دينه وأداء فريضته • اذ أكبر عقاب فى هذا القانون حبس المرء طول حياته • والمسلم يرحب به ويتمناه ان كان لا بد منه فى سبيل الحق •

لا يوجد فى الاسلام قانون ١٢٤ :

ان تاريخ الامة الاسلامية ينقسم الى دورين مختلفين :

الدور الأول دور نبى الاسلام صلى الله عليه وسلم وخلفائه الأربعة : وقد كان النظام الجمهورى فيه قائما بأتم معانيه • فكانت الأمة متمتعة بالجمهورية الحقة • ترتع فى رياض المساواة الاسلامية العامة • وتعيش عيشة هنيئة فى ظلال الحرية الكاملة • لا تخيفها الملكية المطلقة • ولا تثقل كواهلها القيصرية والكسروية •

خليفتها ورئيس جمهوريتها من آحادها • تنصبه بأيديها • وتحاسبه فى جليل الأمور وحقيرها • ولا تسمح له أن يجحف بها • أو يستبد برأيه دون رأيها •

وهو نفسه يكون من أعدل الناس وأفضلهم وأعلمهم فى وظائف الخلافة والحكومة • يعيش عيشة الفقراء والمساكين • يستر جسده بأطمار بالية • ويسكن فى كوخ حقير • ولم يكن اذ ذاك بدار الخلافة الاسلامية القصر الأبيض لجمهورية أمريكا •

وقد كان المسلمون فى هذا الدور يقاطعون الخلفاء ويناقشونهم وهم على المنابر يخطبون[1] حتى ان عجزوا من عجائز العاصمة (المدينة) كانت تتجرأ عليهم وتخاطب الواحد منهم على مسمع من الناس أن تزغ عن الحق نقومك بسيوفنا والخليفة لا يؤاخذها ولا يعاقبها على ذلك • بجناية

(١) يشير بذلك الى المرأة التى قاطعت سيدنا عمر وهو يخطب على المنبر ينهى عن التغالى فى المهور فذكرته بقوله تعالى (وآتيتم إحداهن قنطارا) فرجع عمر عن كلامه وقال اخطأ عمر وأصابت امرأة •••

الثورة ، بل يشكر الله ويحمده أن وجد فى الأمة السنة صادقــة فى اعلان الحق كهذه العجوز[1] .

وقد قام الخليفة مرة يوم الجمعة خطيبا وقال : اسمعوا واطيعوا فرد عليه رجل قائـــلا : والله لا نسمع ولا نطيع لأنك خنت الأمانة ، وأخذت من القماش أكثر من سهام المسلمين . فنادى الخليفة بابنه (عبد الله) فشهد أن أباه لم يخن المسلمين وقال : بل انى قد أعطيته سهمى من القماش ، ومن سهمينا كان الرداء الطويل الذى يلبسه .

وقد كان سير الأمة هذا مع ذلك الخليفة الذى كانت تقشعر من رهبته جلود الملوك فى عقــر دارهم ، وتخر أمام هيبته عروش فارس ومصر ، وتتزلزل من بأسه جدران القسطنطينية ، ولكن مــع هذا كله لم يكن عهد الحكومة الاسلامية قانون ١٢٤ يحاكم به الخليفة معارضيه من أصحاب الحق ..

أما الدور الثانى فدور الحكومة الشخصية والملكية المطلقــة :

وقد بدأ باستيلاء بنى أمية على الخلافة قهرا وعنوة ، فانقلبت الجمهورية الاسلامية فيه على رأسها ، وحل الاستبداد والقهر محلها ، وظهر مكان الخليفة الاسلامى ملك تكلل بتاج الملــك ، وتربع على عرش الحكومة المذهب ، ولكن استبداد هذا الدور مع سائر عقوباته المريعة من الجلــد بالسياط ، والحبس فى السجون ، والقتل بالسيوف ، لم يستطع أن يصد المسلمين عن اعلان الحق ، ويقعدهم عن الذود عنه وحمايته ، بل ظلت ألسنتهم حادة ذلقة فى اعلانه ، ونفوسهم متهيئــة لتقديم المهج فى سبيلــه .

وأصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم عاشوا وظلوا ينددون بمظالم الولاة ، ويشهرون بــه ، ويطالبونه بتغييره ، وجعل الحكومة شورى من المسلمين .

ثم قام مقامهم التابعون الذين تربوا فى حجورهم ، وتخلقوا بأخلاقهم ، فكانوا خير خلــف لخير سلف ، ماهابوا غير الله ، وماداهنوا أحدا من خلقه ، بل كانوا يجهرون بالحق ، ويقولــون للجبابرة أو الطواغيت : أصلحوا أو زولوا .

وقد عد الامام محمد الغزالى أولئك الصحابة والتابعين الذين كانوا الى زمن الخليفــــة

---

(١) المشهور أن الذى قال ذلك رجل وعمر رضى الله عنه يخطب فى أول توليته الخلافة: وقوله : ان رأيتم فى اعوجاجا فقومونى . فقال رجل من المستمعين والله لو رأينا فيك اعوجاجــا لقومناه بسيوفنا ، فلم يثر عمر بل قال : أحمد الله أن وجد فى أمة محمد من يقوم عمر بــ سيفــه .

هشام بن عبد الملك ، وأنكروا ظلم الأمراء ، وطالبوهم بحكومة الشورى والنيابة فبلغ عددهم أكثر من ثلاثة وعشرين رجــلا .

وانى أنبه هنا أنه لا يوجد فى شريعة الاسلام قانون ١٢٤ من القوانين الهندية الذى كان يمنع هؤلاء الأخيار من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر واعلان الحق وتقبيح الظلم .

هشــام وطــاووس :

طلب الخليفة الأموى الشهير هشام بن عبد الملك (طاووس اليمانى) يوما الى مجلســه ، فلما دخل عليه لم يسلم عليه بامرة المؤمنين ، ولكن قال السلام عليك ياهشام ، وجلس بحذائه ، وقال : كيف انت ياهشام ؟

فغضب هشام غضبا شديدا حتى هم بقتله ، وقال له : ياطاووس ما الذى حملك على ماصنعت ؟ فقال له : وما الذى صنعت ؟ فازداد غضبا وغيظا ، وقال : (خلعت نعليــــك بحاشية بساطى ، ولم تقبل يدى ، ولم تسلم على بامرة المؤمنين ولم تكننى ، وجلست بازائى بغير اذنى ، وقلت : كيف أنت ياهشام : !!

قال طاووس : أما مافعلت من خلع نعلى بحاشية بساطك فانى أخلعها بين يدى رب العزة كل يوم خمس مرات .

وأما قولك لم تقبل يدى فانى سمعت على بن أبى طالب رضى الله عنه يقول : لا يحــــل لرجل ان يقبل يد احد الا امرأته من شهوة ، أو ولده من رحمة .

وأما قولك : لم تسلم على بامرة المؤمنين فليس كل الناس راضين بامرتك ، فكرهت أن أكذب .

وأما قولك جلست بازائى ، فانى سمعت أمير المؤمنين عليا يقول : اذا أردت أن تنظر الى رجل من أهل النار فانظر الى رجل جالس وحوله قوم قيام .

فقال هشام : (عظنى) . فقال : سمعت من أمير المؤمنين على رضى الله عنه أن فى جهنم حيات كالاقلال ، وعقارب كالبغال تلدغ كل أمير لا يعدل فى رعيته ثم قام .

وكان مالك بن دينار ينادى فى جامع البصرة (ان الله دفع الى هؤلاء الملوك غنما سمانا صحاحا فأكلوا اللحم ، ولبسوا الصوف ، وتركوها عظاما تقعقع) .

أبوحازم وسليمان :

وخاطب أبوحازم سليمان بن عبد الملك الجبار بقوله : (ان آباءك قهروا الناس بالسيف ، وأخذوا هذا الملك عنوة من غير مشورة من المسلمين ، ولا رضا منهم ، حتى قتلوا منهم مقتلة عظيمة . وقد ارتحلوا . فلو شعرت بما قالوا وما قيل فيهم .

فقال له رجل من جلسائه : بئس ماقلت .

قال أبوحازم : (ان الله قد أخذ الميثاق على العلماء ليبيننه للناس ولا يكتمونه .

وقال سليمان : وكيف لنا أن نصلح هذا الفساد ؟ قال أن تأخذه من حله فتضعه فى حقه .

فقال سليمان : (ومن يقدر على ذلك ؟ .

فقال : من يطلب الجنة ، ويخاف من النار .

فقال سليمان : ادع لى . فقال أبوحازم : اللهم ان كان سليمان وليك فيسره لخير الدنيا والآخرة ، وان كان عدوك فخذ بناصيته الى ما تحب وترضى .

فقال سليمان : أوصنى . فقال أوصيك وأوجز : عظم ربك ، ونزهه أن يراك حيث نهاك ، أو يفقدك من حيث أمرك .

وكان سعيد بن المسيب التابعى الكبير يقول على رءوس الأشهاد فى ولاة زمنه (يجيعون الناس ويشبعون الكلاب) .

وقد ظل علماء الاسلام على هذه الديدنة بعد عهد خلفاء بنى أمية غير هيابين ولا وجلين فى عهد الدولة العباسية .

سفيان والمنصور :

فهذا المنصور الخليفة العباسى القهار لما قال لسفيان الثورى : ارفع الينا حاجتك . رد عليه قائلا : اتق الله فقد ملأت الأرض ظلما وجورا .

وهرون الرشيد :

ولما استقر على منصة الخلافة (هرون الرشيد) الخليفة العباسى الشهير كتب الى سفيان الثورى كتابا بيده يقول فيه :

((من عبد الله هرون الرشيد أمير المؤمنين الى أخيه سفيان بن سعيد بن منذر . أما بعد :
فيا أخى قد علمت أن الله تبارك وتعالى آخى بين المؤمنين ، وجعل ذلك فيه وله ، واعلم أنى قد واخيتك مؤاخاة لم أصرم بها حبلك ، ولم أقطع منها ودك ، وانى منطو لك على أفضل المحبة ، واعلم يا أبا عبد الله أنه ما بقى من اخوانى واخوانك أحد الا وقد زارنى ، وهنأنى بما صرت اليه ، وقد فتحت بيوت الأموال ، وأعطيتهم من الجوائز السنية ما فرحت به نفسى ، وقرت به عينى ، وانى استبطأتك فلم تأتنى ، فكتبت اليك كتابا شوقا منى اليك شديدا ، وقد علمت يا أبا عبد الله ما جاء فى فضل المؤمن وزيارته ومواصلته ، فاذا ورد اليك كتابى فالعجل العجل)) .

فهل يعلم القارئ ((ريدنج)) من كان هذا الرشيد الذى يكتب الى عالم من علماء المسلمين بهذه اللهجة اللينة ؟ انه قد كان يحكم ربع الكرة الأرضية ، ويخاطب قيصر الروم فى كتاب منه اليه ((يا ابن الكلب)) كما صرح به المؤرخ جبن الانكليزى . ثم هل علم بما رد به ذلك العالم عليه ؟ ان لم يعلم فليسمع منى جوابه ، ثم يتدبر فيه ، فانه يجلى له ما خفى عليه من حقيقة الاسلام ، وجرأة المسلمين فى اعلان الحق ، ويبين له أن ما تطلبه حكومته منا لا ينال ، وأن المسلم لا يمتنع من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ولو فجع فى النفس والمال .

قد كان من حديث سفيان أنه لما أتاه الرسول بكتاب الخليفة ، كان فى مسجد الكوفة وحوله أصحابه ، فرمى اليه الرسول الكتاب فلما رآه ارتعد وتباعد منه ، كأنه حية عرضت له ، ثم أدخل يده فى كمه ، ولفها بعباءته ، وأخذ الكتاب فقلبه ، ثم رماه الى من كان عنده ، وقال : ((يأخذه بعضكم يقرؤه ، فانى استغفر الله ان أمس شيئا مسه ظالم بيده . فلما فرغ من قراءته قال : ((اقلبوه واكتبوا الى الظالم فى ظهر كتابه ، فقيل له : يا أبا عبد الله انه خليفة ، فلو كتبت اليه فى قرطاس نقى ؟ فقال اكتبوا الى الظالم فى ظهر كتابه ، فان اكتسبه من حلال فسوف يجزى به ، وان كان اكتسبه من حرام فسوف يصلى به ، ولا يبقى شىء مسه ظالم عندنا ، فيفسد علينا ديننا ، ثم قال : اكتبوا :

كتاب سفيان اليه :

((من العبد المذنب سفيان بن سعيد بن المنذر الثورى الى العبد المغرور بالآمال هرون الرشيد الذى سلب حلاوة الايمان .

أما بعد : فانى قد كتبت اليك أعرفك أنه قد صرمت حبلك ، وقطعت ودك ، وقلبت موضعك فانك قد جعلتنى شاهدا عليك ، باقرارك على نفسك فى كتابك بما هجمت به على بيت مال المسلمين ، فانفقته فى غير حقه ، ثم لم ترض بما فعلته وأنت ناء عنى ، حتى كتبت الى تشهدنى على نفسك ، أما أنى قد شهدت عليك أنا واخوانى الذين شهدوا قراءة كتابك ، وسنؤدى الشهادة عليك غدا بين يدى الله تعالى " ياهرون ، هجمت على بيت مال المسلمين بغير رضاهم ؟ هل رضى بفعلك المؤلفة قلوبهم والعاملون عليها فى أرض الله ، والمجاهدون فى سبيل الله وابن السبيل ؟ أم رضى بذلك حملة القرآن وأهل العلم والأرامل والأيتام ؟ هل رضى بذلك خلق من رعيتك ؟ فشد ياهرون مئزرك وأعد للمسألة جوابا ، وللبلاء جلبابا " ، واعلم أنك ستقف بين يدى الحكم العدل ، وقد رزئت فى نفسك ، اذ سلبت حلاوة العلم والزهد ولذيذ القرآن ومجالسة الأخيار ، ورضيت لنفسك أن تكون ظالما ، وللظالمين اماما ، ياهـــرون قعدت على السرير ، ولبست الحرير ، واسبلت سترا دون بابك ، وتشبهت بالحجبة بـرب العالمين ، ثم أقعدت احفادك الظلمة دون بابك وسترك ، يظلمون الناس ولا ينصفــون ، أفلا كانت هذه الأحكام عليك وعليهم قبل أن تحكم بها على الناس ؟ " .

فكيف بك ياهرون غدا اذا نادى المنادى من قبل الله تعالى ويداك مغلولتان الى عنقك ، لا يفكهما الا عدلك وانصافك ، الظالمون حولك ، وأنت لهم سابق وامام الى النار ، كأنى بك ياهرون وقد أخذت بضيق الخناق ، ووردت المسلق ، وأنت ترى حسناتك فى ميزان غيرك ، وسيئات غيرك فى ميزانك زيادة عن سيئاتك ، بلاء على بلاء ، وظلمة فوق ظلمـــة ، فاحتفظ بوصيتى ، واتعظ بموعظتى التى وعظتك بها ، واعلم أنى قد نصحتك وما أبقيت لك فى النصح غاية والسلام " .

فلما وصل هذا الكتاب الى هرون أقبل يقرؤه ودموعه تنحدر من عينيه ، ويقرأ ويشهـــق ثم لم يزل كتاب سفيان الى جنب هرون يقرؤه عند كل صلاة حتى توفى .

ولم يكن العلماء والائمة هم الذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وحدهم ، بل كان يوجد من دهماء المسلمين وعامتهم من يؤدى هذه الفريضة بكل شجاعة ورباطة جأش .

المنصور حول الكعبة :

(فبينما كان الخليفة المنصور العباسي يطوف بالبيت اذ سمع رجلا عند الملتزم يقول : اللهم انى أشكو اليك ظهور البغى والفساد فى الأرض ، وما يحول بين الحق وأهله من الظلم والطمع) فدعاه المنصور وقال : ماهذا الذى سمعتك تقوله عن ظهور البغى والفساد فى الأرض ؟ وما يحول بين الحق وأهله من الطمع والظلم ؟ .

فقال الرجل : الذى دخله الطمع حتى حال بينه وبين الحق ، واصلاح ماظهر من البغى والفساد فى الأرض ، أنت ، قال المنصور : ويحك كيف يدخلنى الطمع والصفراء والبيضاء فى يدى والحلو والحامض فى قبضتى ؟

قال : وهل دخل أحد من الطمع ما دخلك ؟ أن الله استرعاك أمور المسلمين وأموالهم ، فأغفلت أمورهم ، واهتممت بجمع أموالهم ، وجعلت بينك وبينهم حجابا من الجص والآجر ، وأبوابا من الحديد وحجبة معهم السلاح ، ثم سجنت نفسك فيها منهم ، وبعثت عمالك فى جمع الأموال وجبايتها ، واتخذت وزراء وأعوانا ظلمة ، ان نسيت لم يذكروك ، وان ذكرت لم يعينوك ، وأقويتهم على ظلم الناس فى الأموال والكراع والسلاح ، وأمرت بألا يدخل من الناس الا فلانا وفلانا ، نفر سميتهم فائتمروا على ألا يصل اليك من علم أخبار الناس شىء الا ما أرادوا ، فامتلأت بلاد الله بالطمع بغيا وفسادا ، وصار هؤلاء القوم شركاءك فى سلطانك وأنت غافل ... الخ) فبكى المنصور بكاء شديدا حتى نحب وارتفع صوته .

الحجاج وحطيط الزيات :

ومن ذا الذى لم يسمع بظلم داهية بنى أمية الحجاج بن يوسف الثقفى ، وغلظته وسفكه للدماء ولكنه مع جبروته وغطرسته لم يستطع صد المسلمين عن اعلان الحق .

فلقد جىء اليه يوما بحطيط الزيات أسيرا فلما دخل عليه قال : انت حطيط : قال : نعم . سل ما بدالك . فانى عاهدت الله عند المقام على ثلاث خصال : ان سئلت لأصدقن ، وان ابتليت لأصبرن ، وان عوفيت لأشكرن . قال : فما تقول فى ؟ قال : انك من أعداء الله فى الأرض تنتهك المحارم ، وتقتل بالظنة ؟ قال : فما تقول فى أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان ؟ قال : أقول أنه أعظم جرما منك . وانما أنت خطيئة من خطاياه .

ودخل رجل من المسلمين على المأمون بن الرشيد وقال له على ملأ من رجاله : ياظالم • انا ظالم ان لم أقل لك يا ظالم ، فأقبل عليه المأمون وقال : من أنت ؟ قال : أنا رجل من السياحين فكرت فيما عمل الصديقون قبلى فلم أجد لنفسى فيه حظا ، فتعلقت بموعظتك لعلى ألحقهم فأمر بضرب عنقه •(1)

فهكذا كان المسلمون فى الأيام الأولى يتقربون الى مولاهم بتعرضهم للملوك والسلاطين وتخشينهم لهم فى القول ، وتقديم مهجهم للهلاك ، ولقد ظلوا على هذه الوتيرة بعد ، ولا يزال يوجد منهم الربانيون يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، حتى يأتى أمر الله ، كما ورد فى الخبر ((لا يزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتى أمر الله وهم ظاهرون)) •

الفتنة التتاريـة ، والفتنة الغربيـة :

فلا تفتنهم الفتنة الحديثة الغربيـة ، ولا تستطيع ردعهم عن علمهم الحق ، اذ هى ليست بجديدة عليهم ، فلقد دهموا قبلها بالفتنة التتارية ، وزلزلوا بها زلزالا شديدا ، فكما نرى الدول الأوروبية ولا سيما انكلترا قد دمرت البلاد الاسلامية ، ومزقت شمل الخلافة العثمانيـة ، وقضت على حرية الممالك الشرقيـة ، وأباحت سفك دماء المسلمين أنهارا فى السهول الأناضولية ، كذلك كانت الفتنة التتارية والتتار ، لم يكونوا أناسا ، بل سباعا ووحوشا ، انهالوا على البلاد الاسلامية كالسيل الجارف ووضعوا السيف فى رقاب المسلمين ، ودمروا الخلافة العباسية ، ودخلوا بغداد فجاسوا خلال الديار ، ولكن هل قدرت سيوف هولاكو ومنكو وباتان السفاكين أن تقهر العلماء الربانيين وتسكتهم عن الحق ؟ كلا فهذا شاعر ايران الشهير السعدى الشيرازى قد قال لهولاكو خان وجها لوجه : انك ظالم ودعا شمس الدين التترى على طوغان وهو يسمع ويرى ، ولعن شيخ الاسلام احمد بن تيمية ايا قا آن فى حضرته وعلى ملأ من جنوده •

نعم كانت فى أيدى التتار السيوف البتارة تطير الهامات فى طرفة عين ، ولكن لم يكن فى الثورة الجنكيزية قانون ١٢٤ الذى امتازت به الدولة البريطانية المدنية فى بلاد الهند •

---

(١) ربما لأنه كان متكلفا فى هذا الموقف كما يظهر من كلامه •

الحجاج وريدنج :

فاذا كنا نحن المسلمين قد عاملنا حكومتنا الاسلامية هذه المعاملة ، فماذا يرجوه منا عمال هذه الحكومة الأجنبية ؟ وهل تكون الحكومة الانكليزية الهندية ((القانونية)) أكرم علينا من الحكومات الاسلامية التى طاعتها واجبة علينا ((شرعا ودينا)) ؟ وهل دولة الملك جورج الخامس ونيابة اللورد ريدنج أعز علينا من خلافة عبد الملك بن مروان ونيابة الحجاج بن يوسف الثقفى ؟ ولو غضضنا الطرف من الفرق الشرعى العظيم بين الحكومة الأجنبية غير الاسلامية والحكومة الوطنية الاسلامية وأنزلناهما منزلة واحدة ، أفلا نقول فى حكومات (جيمسفورد) و (ريدنج) ماقلناه فى حكومات الحجاج وخالد القسرى من قبل ؟ قد قلنا يومئذ : اتق الله ، فقد ملأت الأرض ظلما وجورا وهذا هو الذى نقوله اليوم ، ولا نزال نقوله حتى يزول الاستبداد أو نزول نحن .

والحقيقة أن ما نعمله الآن فى الهند من ترك التعاون ومقاطعة الحكومة ، انما كما أمرنا به فى مقابلة ظلم الولاة من المسلمين ، لا فى مقابلة الأجانب — ولو فهم أساطين بريطانيا ودهاتها هذه الحقيقة ، لاعترفوا بأن مساهمة المسلمين معهم ومداراتهم قد بلغت منتهاها ، وأنه لاينبغى أن ينتظر منهم أكثر من هذا ، اذ ليس وراءه الا الارتداد عن الاسلام أو النفاق فيه ، ولا يمكنهم أن يفعلوا ذلك حبا فى سواد عيون البريطانيين (أو زرقتها) ..

موقف المسلمين اذا ظلموا :

ان الشريعة الاسلامية رسمت للمسلمين خطتين اذا ظلموا ، خطة ضد استبداد الحكومة الاسلامية ، وخطة ضد استبداد الحكومة الأجنبية ، والأولى تنحصر فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، واعلان الحق ، وتقبيح الظلم من استطاع اليه سبيلا ، أما الثانية فليست الا السيف والحرب العوان وضرب الرقاب ، وفى كلتيهما أمر المسلمين بأن يزهقوا نفوسهم ، ويرحبوا بالموت صابرين ، ثابتين ، شاكرين ، راجين رحمة ربهم وفلاح الدنيا والآخرة . ولذا تجدهم كما تجرعوا كؤوس المنايا بين الولاة الظلمة من أنفسهم فى سبيل الحق ، كذلك باعوا رؤوسهم بيد الأجانب فى أعلاء كلمة الحق وقد سبقوا سائر الأمم فى هذا المضمار ، فلا يوجد (لمسيحهم العربى) مثال ، ولا يوجد (لمسيحهم المدنى) مثال .

ولقد كان يجب على مسلمي الهند الآن أن يتخذوا الخطة الثانية ، فيحاربوا الحكومة الانكليزية بالسلاح ، ويتفانوا في جهادهم ، غير أنهم آثروا الأولى ، وأعلنوا أنهم لا يرفعون عليها السلاح ، ولا يسفكون الدماء ، بل يظلون متمسكين بعرى الأمن والسلم ، وانما يقاطعونها وينفضون أيديهم من التعاون معها ، ويشهرون بسوءاتها ، ويحاولون تغييرها (بالسعى المدنى) أى يعاملونها كما كانوا يعاملون الحكومات الاسلامية الجائرة .

أجل ان فيهم ضعفا ووهنا ، ولا يستطيعون محاربة الدولة البريطانية القوية ، الا أنهم لم يكونوا عاجزين عن القاء أنفسهم فى أفواه مدافعها وسد طريقها بجثثهم الممزقة ، ولكنهم مع قدرتهم عليه اختاروا الخطة الأولى ، ولم يذيقوا عليها السبل . فهلا كان يجب عليها أن تنكر فى صنيعهم وتسامحهم معها ؟ فحسبها أنهم يعاملونها كمعاملتهم لحكوماتهم الاسلامية .

انقلاب الحـــال :

وانى أقول حقا انه لا يؤلمنى أن أرى الحكومة عازمة على معاقبتى ، وانها لا تحاكمنى الا لأن تزجنى فى السجون . اذ هذا أمر لا بد منه وانما الذى يؤلمنى فيفتت كبدى هو أن أرى الحالة تنقلب انقلابا تاما فبدلا من أن ينتظر من المسلم صدق اللهجة والقول الحق يطلب منه كتمان الشهادة والا يقول للظالم (انك ظالم (لأن قانون ١٢٤ يعاقب عليه) .

ولقد كان المسلم فى العهد الأول يوقف بين يدى ملك جبار لقوله له انك ظالم فيصب عليه العذاب الى أن تتشقق القصب ثم يعدون قصبة حتى يذهب لحمه كله ، فلا يسمعونه يستغيث أو يندم أو يتألم ، بل لا ينفك لسانه يقول ماقاله أولا [1] فوازنوا بين هذا وبين قانونكم ١٢٤ .

ولست أنكر أن الحقيقة المحزنة هى أن المسلمين أنفسهم مسئولون عن هذا الانقلاب المخزى وتسلط الأجانب عليهم ، لأنهم قد فقدوا خصائص الحياة الاسلامية ، وكسبوا جميع رذائل العبودية حتى أصبحوا بحالتهم الحاضرة أكبر فتنة للاسلام . أقول هذا وقلبى يذوب حزنا ، وكمدا على وجود أناس من المسلمين فى هذه البلاد يتخذون أربابا من دون الله ، ويعبدون الظلم والظلمة جهرا وعلنا ، فالى الله المشتكى ثم الى الله المشتكى .

---

(١) وقد فعل هذا الحجاج بن يوسف الثقفى مع حطيط الزيات الذى مرت حكايته آنفا (المترجم)

الهزيمة أو الموت :

ولكن سوء حال المسلمين لا يعود ناحية تعاليم الاسلام الحق البيضاء المصونة بين دفتى الكتاب الحكيم ، وهى لا تبيح للمسلمين فى حال من الأحوال أن يعيشوا عبيدا وخولا للأذلاء والمستبدين ، بل توجب عليهم أن يحيوا أحرارا .. أو يموتوا كراما ، وليس بينهما سبيل .

وهذا الذى حملنى قبل اليوم باثنتى عشرة سنة على أن أذكر المسلمين فى (الهلال)[1] بأن الجهاد فى سبيل الحرية وبيع الرؤوس فى سبيل اعلاء كلمة الحق هو ارثهم الاسلامى القديم الذى ورثوه عن أجدادهم العظام ، وانه يجب أن يحافظوا عليها بكل قوة ، وأن دينهم يحتم عليهم أن يسبقوا جميع أبناء وطنهم فى الجهاد الوطنى ، فلا يكونوا فيه أذنابا ، بل رؤوسا وأعلاما ، يهتدى بهم . ولقد كان من فضل الله أن دعوتى لم تذهب أدراج الرياح ، بل لقيت القبول والاجابة منهم ، وها نحن أولاء نراهم اليوم قد شمروا عن ساعديهم ، وعزموا عزما أكيدا على السعى والعمل مع اخوانهم الوطنيين من الهندوس والنصارى والمجوس لتحرير وطنهم من ربقة العبودية الأجنبية ، ولا يقر لهم قرار الا بعد نيل المرام .

مسألة الخلافة :

وانى لا أذكر هنا مظالم الحكومة حيال الخلافة الاسلامية ، لأنها أشهر من أن تذكر ، ولكن الذى أريد التصريح به هو أنه لم يمض على يوم ولا ليلة فى خلال السنتين الماضيتين الا وأعلنت تلك المظالم على رؤوس الأشهاد ، وصرخت بأعلى صوتى قائلا : ان الدولة التى تدوس الخلافة الاسلامية تحت أقدامها ، ولا تندم على ما اقترفته فى الهند من الفظائع والمنكرات لا تستحق أن يخلص لها أحد من أبناء هذه البلاد ، لأنها بأعمالها قد أصبحت عدوا ألد للاسلام والمسلمين ولسكان هذا القطر .

ولا تلومن الحكومة أحدا غير نفسها على سقوطها فى هذا المأزق ، الذى يصعب عليها الخروج منه ، لأننى قد نبهتها سنة ١٩١٨ من معتقلى فى كتاب منى الى (اللورد جيمسفورد) الوالى السابق ، فصلت له فيه الأحكام الاسلامية التى تتعلق بالخلافة ، وجزيرة العرب ، وصارحته بأن الدولة البريطانية اذا نقضت عهودها واستولت على الخلافة والبلاد الاسلامية ، توقع المسلمين

---

(١) المجلة التى سبق أن تحدثنا عنها والتى أصدرها مولانا آزاد .

فى حالة حرجة جدا ، ولا يبقى لهم اذ ذاك الا أن يكونوا مع الاسلام أو مع بريطانيا ومعلوم أنهم يؤثرون الاسلام عليها .

ولكنها لتكبرها وعجرفتها لم تبال بما كتبت ، فألقت كتابى ظهريا ، ونكثت أيمانها من بعد توكيدها ، فاحتلت دار الخلافة الاسلامية ، واستولت على العراق والشام وفلسطين ، وبسطت نفوذها على جزيرة العرب . فعادت الاسلام والمسلمين علنا ، واضطرتهم الى مقاطعتها ، ونبذ معونتها والتبرؤ من طاعتها ، وهو أقل ما توجبه الشريعة فى مثل هذه الحالة كما مر ، ثم انها باصرارها على غيها واعراضها عنهم ، واستنكافها من الانصات اليهم أيأستهم من نفسها ، حتى أيقنوا أن لا سبيل الى الحياة ونيل حقوقهم المغصوبة الا باسقاط هذه الحكومة ، واقامة حكومة وطنية بحتة ، وهى التى يسمونها فى لغتهم (بالسوراج) .

أعدل هذا أم ظلم ؟

وخلاصة القول ان اعترافاتى فى هذا الباب جلية وصريحة ، فانى لا أعد الحكومة الحاضرة الا (بيروكريسيا) غير شرعى ، وعدما محضا فى عين الحق والقانون ومئات الملايين من أبناء البلاد ، فهم يمقتونها أشد المقت ، ويطلبون زوالها وسقوطها بأسرع ما يمكن ، لأنهم ألفوها دائما تؤثر الرهبة والشدة فى أعمالها ، على العدل والحق ، وتبيح سفك الدماء البريئة بدون رحمة ولا شفقة فى (جليانو لا باغ)[1] وتجلد الصبيان الذين ماعرفوا الذنوب بعد لينحنوا أمام العلم البريطانى المثلث — ثم انهم وجدوها لا ترتدع عن دوس الخلافة الاسلامية ، ولا تسمع الصيحات المتوالية التى تعلو من أفواه المسلمين وغيرهم ، وتسلم أزمير وتراقية الى اليونان ظلما وجورا ، وتسمح لهم باراقة دماء المسلمين أنهارا فى سهول الأناضول .

ولقد رأوا جرأتها فى سحق الحق غير قليلة ، وهمتها فى لبس الصدق بالافك غير كليلة ، ولسانها فى تكذيب الحقائق غير عيى ولا متلعثم ، فمع أنه يوجد فى ولاية أزمير (٧٠ ٪) من المسلمين ، يعلن رئيس وزرائها بدون أدنى تحرج أن الأكثرية للمسيحيين !! ولقد وضع

---

(١) هو ميدان محاط بالجدران بمدينة أمرتسر من مقاطعة بنجاب فى الشمال ، قتلت فيه الجيوش الانجليزية مئات من الوطنيين رجالا وشيوخا وأطفالا ، كانوا قد اجتمعوا فيه ليتشاوروا فى بعض القوانين الجائرة .

اليونانيون السيف فى رقاب المسلمين ، وذبحوهم ذبح الأنعام ، وهو يقلب الحقيقة فيتهـم العثمانيين بالقتل وسفك الدماء ، ويشهر المظالم التركية المخترعة فى العالم بلا مبالاة ، ويخفى بكل وقاحة تقرير لجنة التفتيش الأمريكية التى ندبتها حكومته بنفسها ، ويؤلب على الأحـرار العثمانيين الدول الغربية كلها ، ويدعوها الى محاربتهم واستئصالهم !!

ثم انهم وجدوها لا تخجل ولا تندم على هذه الفضائح والمنكرات ، ولا ترغب فى تلافيهـا واصلاح عوجها ، بل تعود ، فتستبد أكثر من قبل ،وتقهر الهلاد وتكبح سعيها الشريف السنى ، وتحمل كل ماعملته فى الحقبة الماضيـة ، وما تعمله ،منذ ١٨ نوفمبر ، الى الآن ، مـن الأعمال الشنيعة التى تشمئز منها الانسانية وتعافهـا .

فياليت شعرى ان لم أقل لمثل هذه الحكومة : (انك ظالمة ، فاما ان تتوبى وامـا أن تزولى فماذا أقوله ؟ أفأكذب وأقول لها : لا بل انك عادلة فلا تتوبى ولا تزولى ؟ !! لعمر الله ان هذا لن يكون أبدا .

ولا يستحق الظالم أن يبدل اسمه ، ويسمى بغير اسمه ، لأنه يملك القوة والسجون والمشانق ، كلا بل أقول كما قال زعيم ايطالية وبطل الحريـة (ميزنى) :

قـرة عينى فى (هذه الجنايـة)

انى لأعجب كيف تقدم الحكومة هاتين الخطبتين الناقصتين ضدى ؟ أفما كانت تجد غيرهما ؟ أفلا توجد هذه الأقوال بعينها وأكثر منها فى الآلاف المؤلفة فى الصحاف التى حررتها ، وفـى جميع خطبى التى خطبتها فى سائر أنحاء الهند ؟ فلو أنها رجعت اليها لوجدتها ممتلئـة مـن هذه الأفكار الثوريـة .

الحكومة تعلم أنى لست حديث عهد (بمبادىء الثورة) لقد مارستها وأنا صغـير ، وباشرت الخطابة والكتابـة فيها وأنا ابن ثمانى عشرة سنة ، وأفنيت شبابى فى عشقها والهيمـان بها ، ودعوت أمتى اليها جهرا على مسمع من الحكومة ، وحرضتها على المطالبة بحقوقها منها ، ولذا اعتقلتنى أربع سنوات ، ولكن الاعتقال لم يكن ليمنعنى من أداء واجباتى ، فظللت تحـت المراقبة الشديدة أرفع صوتى بها ، وأدعو الناس اليها ، لا سرا بل علنا فى رابعة النهـار ، وكيف لا ، وفيها قرة عينى ، وهى مقصدى من الحياة ، أن أعيش لأجلها ، وان مت مت عليها ، (ان صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين) .

الحركة الاسلامية الاخيرة :

كيف استطيع التبرؤ من هذه (الجناية) وأنا الذى قمت بهذه الحركة الاسلامية التى احدثت انقلابا عظيما فى أفكار المسلمين السياسية وأوصلتهم الى حيث تراهم الآن ، فانهم بقبولهم أفكارى أصبحوا شركائى فى الجريمة واستحقوا العقاب الذى تفرضه الحكومة ولقد اصدرت سنة ١٩١٢ صحيفة باسم ((الهلال)) بثثت بها جراثيم هذا الذنب فى المسلمين ، فملكت قلوبهم وسمت أفكارهم ، فبعد أن كانوا أعداء لاخوانهم الهندوس وعقبة كؤودا فى جهادهم الوطنى ، وآلة صماء فى يد الحكومة ، يعتقدون أن البلاد اذا استقلت تغلب عليهم الهندوس ، وأسسوا دولتهم لأنهم اكثر عددا منهم ، أصبحوا بدعوة ((الهلال)) يرجحون قوة الايمان ، قوة الايمان والحق على قوة العدد والمدد ، ودعوتهم الى المساهمة مع الهندوس فى الجهاد الوطنى ، فأصبحوا متحدين معهم ، وقاموا جميعا بالحركة الحاضرة ، وغنى عن البيان أن الحكومة لم تكن لتتحمل الحركة التى أحدثتها ((الهلال)) فعمدت الى مصادرتها ، واغلاق مطبعتها ، ثم انشأت جريدة اخرى باسم ((البلاغ)) فاعتقلتنى .

وانى أصرح هنا بأن ((الهلال)) لم تكن الا دعوة للحرية أو الموت وأن ما يعمله الآن ((المهاتما غاندى)) من بث الروح الدينية فى النفوس كانت ((الهلال)) قد فرغت منه سنة ١٩١٤ وأن من المصادفات العجيبة أن المسلمين والهندوس ما قاموا بالحركة الجديدة القوية الا بعد أن حلت فيهم الروحانية الدينية محل المدنية الغربية المادية .

مؤتمر الخلافة بكلكتا :

ثم انى منذ خرجت من الاعتقال الطويل ما برحت أنشر هذه المبادىء بين الناس ، وادعوهم اليها ، ففى مؤتمر الخلافة الذى انعقد فى ٢٨ ، ٢٩ فبراير سنة ١٩٢١ بكلكتا نفسها والذى رأست جلساته ، وحملت المسلمين على أن يعلنوا القرار الآتى :

((ان اصرت الحكومة على غوايتها ولم تصغ لمطالبنا فى مسألة الخلافة اضطر المسلمون تلبية لأوامر دينهم أن يتخلوا عن جميع روابط الولاء التى تربطهم بها)) .

وألقيت فى هذا المؤتمر خطبة طويلة بينت فيها جميع الأمور بيانا تاما ، وهى توجد ناقصة فى هاتين الخطبتين اللتين أحاكم عليهما ...

التعاون والخدمة العسكرية :

ولقد شرحت فى هذه الخطبة أن الشريعة توجب على المسلمين فى الحالة الحاضرة أن يكفوا عن التعاون مع الحكومة ، وأن يقاطعوها مقاطعة تامة ، وهذا هو ((اللاتعاون)) الذى أطلق عليه فيما بعد اسم (Non Cooperation) وتولى ((مهاتما غاندى)) قيادته .

وفى نفس هذا المؤتمر المنعقد بكلكتا أعلن ((أنه لايحل للمسلمين أن ينخرطوا فى الخدمة العسكرية لهذه الحكومة ، لأنها تحارب الخلافة الاسلامية)) وأن من أعجب العجب أن تؤاخذ الحكومة أناسا [1] وتعاقبهم لاعلانهم هذا الحكم فى مدينة كراتشى ولا تؤاخذنى به ، مع أنى صرحت مرارا على صفحات الجرائد وفى خطبى أن أول من قدم هذا الاقتراح وأعلن هذا الحكم الدينى هو أنا بعينى ، فقد تقرر هذا وصودق عليه فى ثلاثة مؤتمرات تحت رياستى ((أولا فى كلكتا ثم فى بريلى ثم فى لاهور ، وقد أعلنته فى غير هذه المؤتمرات ودعوت الحكومة الى معاقبتى ، مع أنى كنت أحق الناس وأولا هم بالعقاب عليه .

وقد طبعت خطبة مؤتمر كلكتا بعد زيادات فيها ، ونشرت مع الترجمة الانجليزية مرارا ، وهى بمثابة جدول مكتوب لجرائمى وذنوبى .

حياتى كلها ((جناية)) :

لقد طفت البلاد الهندية كلها عدة مرات خلال السنتين الماضيتين وحدى ، ومع ((مهاتما غاندى)) ولا توجد بلدة الا وخطبت فيها على مسألة الخلافة وبنجاب ((وسوراج)) (الحرية) واللاتعاون ، وبينت جميع تلك الأمور التى تحتوى عليها هاتان الخطبتان .

ولقد انعقدت جمعية الخلافة الكبرى فى ديسمبر سنة ١٩٢٠ مع المؤتمر الوطنى فى ((ناكبور)) وجمعية العلماء فى ابريل سنة ١٩٢١ فى ((بريلى)) وجمعية الخلافة لمقاطعة ((أوهرو)) فى اكتوبر ((بأجرا)) وجمعية العلماء العامة فى نوفمبر ((بلاهور)) وقد رأست

(١) وقد سجنت الحكومة الاخوين الشهيرين محمد على وشوكت على وغيرهما مدة سنتين لاعلانهم مثل هذا فى مؤتمر الخلافة الذى عقد فى كراتشى سنة ١٩٢١ .

هذه الجمعيات كلها ، وخطبت فيها خطبا طويلة قلت فيها ما قلت في هاتين الخطبتين بل أكثر منه وأشد .

فان كانت محتويات هاتين الخطبتين لا تلائم الحكومة وترانى أستحق العقاب لأجلها تحت قانون (١٢٤) ، فلم لا تعاقبنى على جميع خطبى ، وهى كلها مثلهما بل أشد وطأة على الاستبداد منهما ؟ بل انى مضطر هنا الى التصريح أمامكم بأنى ارتكبت هذه الجناية مرارا يستحيل عدها بل ما عملت فى السنتين الماضيتين غير هذه الجناية .

اللاتعاون السلمى :

اننا وضعنا لجهادنا الحق خطة (اللاتعاون السلمى) . أجل أن القوات المادية واقفة أمامنا بجميع أسلحتها القتالة ، وموادها المظيمة تريد أن تسحقنا سحقا ، وتمحق الحرية والحق معنا ، ولكن هذا لا يهولنا ، لأننا لا نثق بالمادة والأسلحة المادية . انما اتكالنا على الله الواحد القهار وثقتنا فى الضحايا المتوالية التى نقدمها ، والثبات القوى الذى نظهره فى هذه المعمعة القائمة بين الحق والباطل والحرية والاستبداد .

وانى لا أرى مثل ((مهاتما غاندى)) أن استعمال السلاح لا يجوز بحال ، لأنى مسلم وأعتقد أن استعماله مباح فى المواقع التى ابتاحه الاسلام فيها ولكنى مع هذا أسلم بجميع أدلة ((المهاتما غاندى)) فى المسألة الحاضرة وأعتقد صحتها ، وانى لعلى يقين من فى أن الهند ستفوز فى قضيتها بخطة اللاتعاون السلمى ، ويكون فوزها مثالا عظيما لفوز القوة الروحانية والاخلاقية والحق على الباطل والمادة ..

الحالة الحاضرة طبيعية :

وانى أكرر ما قلته أولا وهو أن ما تعمله الحكومة معنا ليس بأمر عجيب ولا غير منتظر فنلومها عليه ، أو نتبرم منه ، فان القهر والعنف لقمع الحرية والحق دأب الحكومات الجائرة وديدنها منذ الأيام الخالية الى اليوم ، ولا ينبغى لنا أن نمنى انفسنا بتغير الطبيعة لأجلنا .

وهذا الضعف الطبيعى كما يوجد فى الأفراد يوجد فى الجماعات ، فكم من الناس من يرد النزر اليسير المغصوب لأنه لا حق له فيه ؟ ! وكيف ننتظر من دولة أن تتخلى عن قارة تسلطت عليها ووجدتها تدر كالبقرة الحلوب ؟ انها لا تقبل شيئا لأنه حق وعدل ، بل تنتظر قوة مقاومة

مثلها ، فاذا تصادمت بها خضعت لكل طلب مهما كان فاحشا ، فالحرب التى شبت الآن بين البلاد والحكومة لابد من طولها وامتدادها ، ولا تأتى النتيجة الا بشق الانفس وان هذا لواضح جلى لكل بصير ، بل هو عادى مثل سائر احوالنا المادية ، فلا ينبغى أن نعجب منه أو نضجر .

وانى أسلم بأننا لم يصبنا ما أصاب الأمم قبلنا فى هذا السبيل ، من العسف والظلم ونقص الأموال والأنفس ، ولا أدرى أهذا لضعف فى مطالبتنا بالحقوق ، ووهن فى سعينا وجهادنا أم لأن ظلم الحكومة لم يبلغ منتهاه بعد ؟ ان المستقبل وحده كفيل بكشفه وبيانه .

وقد علمنا التاريخ أن هذا التزاحم كما يبتدئ فى كل زمان متشابها ، كذلك ينتهى دائما متشابها ، فالحرية والحق ينتصران ويغلبان ، والاستبداد والباطل يخذلان ويسقطان ، فاذا كنا صادقين فى قضيتنا ، صابرين فى بلائنا فاننا ننجح ونفوز بلا ريب ، وتضطر هذه الحكومة التى تعاملنا اليوم كالمجرمين الى أن ترحب بنا غدا كالأبطال الفاتحين ...

الثـــورة :

لقد اتهمت بالثورة ، فمهلا ، ذرونى أفهم معنى ((الثورة)) أهى ذلك المسعى الذى لم ينجح بعد ؟ ان كان هذا هو الثورة فنعم ، انى ثائر وواقف بين يديكم فعاقبونى بأى عقاب شئتم ، ولكن اعلموا أن هذا السعى اذا تكلل بالنجاح فانه يسمى (بحب الوطن) وجهاد الحرية . لقد كنتم بالأمس تسمون قادة ايرلندا (ثوارا عصاة) ولكن أى اسم تختاره الدولة البريطانيـــة لديفاليرا وجريفث ؟ أهم ثوار الآن أم أبطال الحرية ؟

ولقد قال مرة قائد ايرلندا بانل : مازال عملنا هذا يسمى فى البداية ثورة ، ثم كـــان فى النهاية جهادا وحربا مقدسة للحرية والوطن .

ناموس القضاء بالحق :

اننى مسلم وحسب المسلم يقينا كتابه الذى يؤمن به ، فالقرآن يدل على أن ناموس انتخاب الطبيعة وبقاء الأصلح ، ناموس عام ، كما يعمل عمله فى الأجسام والمادة فيبقى فيها الأصـــح والأصلح للبقاء ، كذلك يعمل فى العقائد والأعمال ، فالأعمال الصالحة تخلد وتثمر ، والأعمـــال

السيئة تفنى وتصير هباء منثورا ، واذا وقع بينهما نزاع غلبت الأولى وحلت محل الثانية (فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض ، كذلك يضرب الله الأمثال[1] .

ولذا يسمى القرآن العمل الصالح ((بالحق)) الذى معناه الثبوت والقيام ، ويسمى الشر والسوء ((بالباطل)) الذى من شأنه أن يزول (ان الباطل كان زهوقا) .

فالتدافع الذى نراه قائما بين الحزبين سينتهى غدا بفوز الحق والصدق وبخسران الباطل تلك سنة الله ((فلن تجد لسنة الله تبديلا ، ولن تجد لسنة الله تحويلا)) .[2]

وانى لا أدرى أقريب يوم الفصل أم بعيد ؟ ولكنى أرى الجو قد اكفهر وتلبد بالغيوم ، واجتمعت الآيات على سقوط الامطار ، والويل كل الويل لمن يرى الآيات والنذر ثم لا يأخذ أهبته ، ولا يسد ثغرته ، وانى لأرى الحكومة من أولئك الذين لا تغنيهم الآيات والنذر فانها لا تزال فى تيهها وطغيانها .

وقد قلت فى هاتين الخطبتين : ان الحرية لا يسطع نجمها ، ولا تستوى على سوقها الا اذا سقيت بماء الظلم والقهر ، فها هى ذى الحكومة قد أخذت تسقيها بظلمها وقهرها .

وكذلك قلت فيهما : اخوانى — لا تحزنوا على من حبس منكم ، بل ان كنتم تطلبون الحق والحرية حقا فهلموا الى السجون واملئوها ، فها نحن أولاء نرى السجون قد ازدحمت وامتلأت حجرها حتى لم يبق فيها محل للصوص والقتلة ، واضطرت الحكومة الى تشييد سجون جديدة .

وكيل الدعوى ، والبوليس ، والقاضى :

وفى الختام أريد أن أسوق كلمة الى هذا النفر من بنى جلدتى الذين يعملون ضدى فى هذه القضية ، فأقول : " أصحابى ، ثقوا بأنى لا أغضب ولا أحقد عليكم ، بل لا أتهمكم بالكذب والزور على ، لأن كل ما قلتموه فى الشهادة حق وصدق ، ولكنى أراكم قد عصيتم الله ربكم بمساعدة الحكومة فى استبدادها وظلمها ، ومحاربتها للاسلام والانسانية ، انى أعلم أن صوت الضمير يوبخكم فى أعماق سرائركم على ما تعملونه ، ولكنكم انما اضطررتم اليها اضطرارا ، لأنكم لا تملكون ما تسدون به عوزكم وترتزقون به أهليكم ، وليس فيكم قوة لتحمل البأساء والضراء فى سبيل الحق ، فلذا لا أضيق عليكم ولا أعنفكم بل أعفو عنكم وأستغفر لكم الله " .

---

(١) الآية ١٧ من سورة الرعد (٢) آية ١٣ من سورة فاطر .

وأما وكيل الدعوى فهو أيضا أحد أبناء وطني ، ولا علم لي بسريرته . وانما أرى علانيته ، وهي تشهد أنه لا حظ له في هذه القضية غير ما يفقده من النقود . فانه أجير يعمل لأجرته ، فلذا لا أسخط ولا أحقد عليه ، بل ادعو لجميع هؤلاء بدعوة نبي الاسلام صلى الله عليه وسلم لقومه (اللهم اهد قومي فانهم لا يعلمون) .

فاقض ما أنت قاض :

وأنت أيها القاضي ما ذا عسى أن أقول لك ؟ ما أقول الا ما قاله المؤمنون قبلي في مثل موقفي هذا : (فاقض ما أنت قاض انما تقضي هذه الحياة الدنيا) .

انني لا أحس بأدنى هم ولا ألم مهما تبالغ في العقاب ، لأن خطابي مع الحكومة لا مع شخص واحد سوما دامت الحكومة فاسدة فلا رجاء في صلاح عمالها .

واني لأختم خطابي بكلمات لفقيد ايطاليا وشهيد الحق ((غارد ينيوبرونو)) الذي كان أوقف مثلي أمام المحاكم فقال ((عاقبوني بأكثر ما يمكنكم أن تعاقبوني به ، فاني أؤكد لكم أن ما يشعر به قلبكم من العطف والحنان عند كتابتكم الجزاء لا يشعر قلبي في مقابلته بذرة من الفزع والهلع عند سماعي هذا الجزاء)) .

وختاما :

أيها القاضي لقد طال الحديث ، وآن أوان الوداع ، فليودع كل منا صاحبه ، وان ما يدور الآن بيننا سيسجله التاريخ بين دفاتره ، ويعتبر به المعتبرون ، ولقد تشاركنا في ترتيبه على سواء ، انا من هذا القفص للجناة ، وأنت من ذلك الكرسي للقضاة . واني أعلم بأنه لابد من هذا الكرسي ، وكذلك لابد من هذا القفص فهلم بنا نفرغ من هذا العمل الذي سيكون عبرة وتذكرة للآتين ، فالمؤرخ ينتظرنا ، والمستقبل يترقب فراغنا ، لنسرع في المجيء اليه ولتسرع أنت في القضاء علينا ، وأن هذا العمل لا يطول قليلا حتى يفتح باب لمحكمة اخرى . وتلك المحكمة محكمة قانون الله والحق ، الزمان يقضي فيها ، ويكون قضاؤه حكما ، وحكمه نافذا . " أ هـ

" ملحــــــق "

===============

الخــــــلافــــــة

على وجهه فى النار • وجعل زمامه بيد الشيطان • وقضى على نفسه بالخسران والهلاك — وذلك لأن الجماعة كالسلسلة الفولاذية التى يعمى الأعداء كسرها • وآحاد الأمة كالحلقات التى سلامة كل واحدة منها فى سلسلتها • فانها ان انفصلت عنها صارت حلقة واحدة تكسر أو تلقى فى الزبالة — •

ولقد كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه كثيرا ما يروى فى خطبه " عليكم بالجماعة — فان الشيطان مع الفذ • وهو من الاثنين أبعد " وفى رواية " فان الشيطان مع الواحد " وقد ذكره فى خطبته الشهيرة بالجابية التى رواهاعبدالعزيز ابن دينار وعامر بن سعد وسليمان بن يسار وغيرهم ونقل البيهقى أن الشافعى رضى الله عنه كان يستدل بهذا على صحة الاجماع — وورد فى الحديث المتواتر بالمعنى " عليكم بالسواد الأعظم " وحديث " فانه من شذ • شذ الى النار " وحديث " يد الله على الجماعة " وحديث "لا يجمع الله أمتى على الضلالة "وكما قال على عليه السلام فى خطبة له " اياكم والفرقة • فان الشاذ من الناس للشيطان كما أن الشاذ من الغنم للذئب • الا من دعا الى هذا الشعار فاقتلوه • ولو كان تحت عمامتى هذه " (١) وغير هذا كثير من الأحاديث والآثار فى هذا الباب —

فجملة القول أن المسلمين أمروا أمرا مؤكدا بأن يكونوا مع الجماعة أبدا • لأن من انقطع عنها انقطع فى النار — ولأن الأفراد والآحاد المتفرقة لا حياة لهم بل انما هم للموت والفناء والهلاك • وأما الأمة الصالحة فحياتها باقية على وجه الدهر • ولن تهلك أبدا — ولأن يد الله مع الجماعة • وهو لا يرضى أن تجتمع الأمة بأسرها على الضلالة • (٢)

ولتعويد المسلمين على الحياة الاجتماعية أمرتهم الشريعة بالتزام صلاة الجماعة فى كل حال • حتى انها لا تترك لفقدان الامام الأهل للجماعة • بل يداوم عليها مع السعى فى نصب الأهل لقوله صلى الله عليه وسلم " صلوا خلف كل بر وفاجر(٣) • "

ولذلك نرى سورة الفاتحة التى هى دعاء اجتماعى للمؤمنين عامة يدعو بها كل

---

١ — روى هذا فى الروايات الأخرى مرفوعا — اه من حواشى الاصل

٢ — تقديم التعليل يفيد الحصر ولا حصر ففى صلاة الجماعة فوائد أخرى •

٣ — رواه البيهقى فى سننه بسند ضعيف وله تتمة •

واحد منهم على حدته استعملت فيها صيغ الجمع لا الواحد ـ فقال " اهدنا الصراط ـ المستقيم " ولم يقل " اهدنى " وذلك لان القرآن كما قلنا من قبل لا يرى لفرد حياة قائمة بالذات ، بل الحياة عنده الجماعة فقط ـ وما الافراد واعمالهم فى نظره الا لان تتكون منهم ومنها الهيئة الاجتماعية ، فلهذا عبر بصيغ الجمع فى هذا الدعاء الذى هو حاصل الايمان ، وزبده القرآن ، ومخ الاسلام ـ وكذلك جعل الدعاء الذى يدعو به كل مسلم لاخيه لما يلقاه " السلام عليكم " بالجمع لا " السلام عليك ، كذلك السلام حين الخروج من الصلاه ـ والعلة فيه ايضا ما ذكرناه لا ما فهمه كثير من الناس.

وانك اذا امعنت النظر ترى جميع احكام الشريعة واعمالها مبنية على هذا الاساس ـ اساس الاجتماع والائتلاف ـ وقد علمت ما فى صلاة الجماعة والجمعة والعيدين ، ومثلها الحج ، فليس هو الا عبارة عن اجتماع المسلمين على اداء شعائر الله ، وكذلك الزكاة التى ما جعلت الا لقيام الهيئة الاجتماعية ، فيؤخذ من رؤوس اموال الافراد شيء معين ليصرف على الجماعة وطريقة ادائها ايضا اجتماعية فليس لكل احد ان يصرف زكاته بمشيئته وارادته ، بل عليه ان يؤديها الى الامام الذى له وحده ان ينفقها فى الامور العامة ويعين لها مصرفا من المصارف المنصوصة فى الكتاب ـ لا كما يفعله الناس فى الهند فينفق كل واحد زكاته بنفسه نعم ليس فى هذه البلاد التعسة امام ، ولكن هذا لا يمنعنا من ان نعمل لها نظاما مخصوصا كما عملنا للجمعة والعيدين .

ولعمر الله ان هذه الحقيقة واضحة لا غبار عليها تنجلى كالشمس لمن دقق النظر فى الاحاديث النبوية التى تنص على ان المسلمين يجب ان يعيشوا عيشة واحدة ويحسبوا انفسهم ابناء امة واحدة ـ فانظر مثلا حديث مسلم " مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد . اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى وحديث الصحيحين " المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا . ثم شبك بين اصابعه فأوضح صلى الله عليه وسلم ان المسلمين ليسوا آجرا أو حجارة متفرقة بل هم جدار بل حصن مشيد يشد بعضه بعضا ـ ولا يذهبن عن بالك ان الامر بتسوية الصفوف فى الصلاة انما هو لنفس هذه الحكمة ـ قال صلى الله عليه وسلم " لتسون

صفوفكم أو ليخالفن الله بين وجوهكم " (البخارى) وفى رواية السنن " سووا صفوفكم فان تسوية الصفوف من اقامة الصلاة " — (البخارى) ومثله كثير من الآيات والاحاديث فى هذا الباب ، يحتاج فى شرحها وبيان حقائقها الى مجلد ضخم ، وقد وفينا البحث حقه فى تفسيرنا " البيان فى مقاصد القرآن " فليراجعه من يشاء .

اجتماع القوى والمناصب وانتشارهـــا

لما كان المسلمون سائرين على هذا الناموس الالهى — ناموس الاجتماع والائتلاف — كانوا فى الذروة العليا من التقدم والرقى ، ولما حادوا عن هذا السبيل القويم سفلوا وانحطوا ، فحل محل الاجتماع الانتشار — فتفرق جمعهم وتمزق شملهم ، وتبددت قواهم ، فكانوا قوما بورا . ولم تقتصر هذه البلية على جانب دون جانب بل عمت وأحاطت الأمة من جميع الجوانب وهى لا تزال ضاربة بأطنابها منذ ألف وثلاثمائة سنة ، بل آخذة فى الازدياد وما يمر يوم الا وتشتد وطأتها فيها —

وقد لهج الناس كثيرا فى انحطاط المسلمين ، فعللوا له عللا ، واخترعوا له اسبابا — غير أن القرآن الحكيم والسنة النبوية والعقل الصحيح لا يقيم لهذا القيل والقال والثرثرة وزنا ، ويرى أن الفساد والانحطاط نتيجة الانتشار والتشتت فقط ، وكل ما عدا هذا من العلل والأسباب فمتفرعة منه ، وراجعة اليه ، فعلة سقوط المسلمين واحدة لا اثنتين ، وان سميت بأسماء مختلفة ، وذكرت بألفاظ عديدة .

نعم قد عمت الفوضى جميع شئون الأمة ، غير أنا نذكر ههنا واحدا منها فنقول . كان النبى صلى الله عليه وسلم مركزا للأمة الاسلامية ترتكز عليه ونقطة لقواها تجتمع فيها ، فلهذا لم يخل بوفاته محل نبى وحامل شريعة فقط ، بل قد خلا محل مركز جامعة الأمة ومصدر قواها ونفوذها — وحكومتها الى غير ذلك من الأوصاف والخصائص التى كانت مجتمعة فى شخصه الشريف — اذ أنه لم يكن كالمسيح عليه السلام معلما وواعظا ، ولا كالملوك الذين فتحوا وحكموا ودمروا وخربوا ، أو عمروا وشادوا ، بل كان صلى الله عليه وسلم جامعا لصفات ومزايا كثيرة فى حين واحد كان نبى الله ورسوله وهادى الخلق وواعظهم وواضع الشريعة ومؤسس الأمة وحاكم

الله تعالى " اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا "

نعم تمت هذه الوظائف النبوية الأساسية ، ولكن بقيت لها وظائف أخرى فرعية وستبقى على حالها ما بقى من الناس باق ، وقد عبر عنها النبى صلى الله وسلم بعبارات مختلفة ، فقال عن عمر رضى الله عنه انه " محدث هذه الأمة " وقال عن العلماء انهم " ورثة الأنبياء " وقال " الرؤيا الصادقة جزء من أربعين جزءا من النبوة " وانه " لم يبق الا المبشرات " وحديث " التجديد " أيضا من هذا النوع .

فخلفاؤه الراشدون كانوا خلفاءه فى جميع وظائفه النبوية غير تلقى الوحى وحق التشريع ، اذ هما خاصان به ، لا يشاركه فيهما أحد من الخلق (١) — فكانوا مثله خلفاء الله فى أرضه ، وأصحاب السلطان — والنفوذ فيها ، وسواس الأمم وقواد الجيوش وقضاة المحاكم ، وأصحاب الاجتهاد والفتيا ، ومنظمى البلاد ، وفاتحى الأقطار ، وحكام الأمم والشعوب ، وذلك لأن " الخلافة والامامة " فى ذاتها كالنبوة مشتملة على الدين والدنيا ، وخليفة المسلمين كنبيهم مجتهد دينى ، وحاكم سياسى — فكنت ترى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب مثلا فى دار شوراه بالمسجد النبوى يفتى فى

---

١ — المنار ، حق التشريع فى الاسلام لله فهو الذى شرع الدين وأحل الحلال وحرم الحرام ، واختلف العلماء فى كونه تعالى أعطى للنبى أن يشرع من تلقاء نفسه ابتداء أم لا ، فذهب الجمهور الى أن — جميع ما ثبت فى سنته من الاحكام فهو بوحى من الله تعالى غير القرآن أو باجتهاد فى فهم أحكامه والاستنباط منها ، ولهم دلائل كثيرة على هذا أظهرها أسناد الشرع اليه تعالى بقوله تعالى (شرع لكم من الدين ماوصى به نوحا والذى أوحينا اليك) الخ وقوله (ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها) واذا أطلق عليه صلى الله عليه وسلم لقب الشارع فانما يراد به على هذا القول مبلغ الشريعة ومبينها وقال بعضهم ان الله أذن له بالتشريع من تلقاء نفسه واستدلوا بتحريمه للمدينة كما حرم ابراهيم مكة أن يباح صيدها أو يعضد شجرها أو يختلى خلاها (أى يقطع حشيشها) ولما قال له عمه العباس ، الا الاذخر يارسول الله — وهو نبات عطر كانوا يضعونه على الموتى عند دفنهم قال " الا الاذخر " ووراء هذا التشريع الدينى ما جعل الله أمره مفوضا الى الرسول والى أولى الأمر يقررونه بالمشاورة وهو جميع ما يتعلق بالمصالح الدنيوية ويسمى فى عرف علماء الحقوق والقوانين تشريعا وسنعود الى بيانه عند الكلام على أولى الأمر .

فى المسائل الدينية من حيث أنه مجتهد وفقيه ويقضى ويحكم بين الناس من حيث انه قاض وحاكم — وينظم الجيوش ويفرق عليهم الجراية من حيث انه ناظر الحربية — ويضع الخطط الحربية من حيث أنه القائد العام — ويقابل سفراء الروم من حيث انه ملك وسلطان ، ثم تراه فى سواد الليل متفقد أحوال المدينة كأنه حارس وخفير وأب رحيم للمسلمين .

بل الأمر أكبر مما ذكر ، فقد ناب الخلفاء الراشدون عن النبى صلى الله عليه وسلم فى وظائفه النبوية التنفيذية المتعلقة بهداية البشر التى جعلها القرآن ثلاثة أقساط بقوله تعالى " يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة " (٦٢/٣) فوظائف النبوة التنفيذية . تلاوة الآيات —وتزكية النفوس — وتعليم الكتاب والحكمة — فقاموا بهذه خير قيام ، ونابوا عنه فيها أحسن نيابة ، فكانوا أسوة بعده يتلون على الناس الآيات الالهية ويزكون القلوب والأرواح ويربون الأمة بتعليمها الكتاب وحكمة السنة — فكأنهم كانوا فى آن واحد أبا حنيفة والشافعى ، وجنيدا والشبلى ، وحمادا والنخعى ، وابن معين وابن راهويه والبخارى ، ولم يكن سلطانهم على الأجسام فقط ، بل كانوا يحكمون على القلوب والأرواح أيضا ببصيرتهم القوية وروحانيتهم القوية — ولذا سميت خلافتهم (بالخلافة الراشدة) — وجعلت أعمالهم تتمة لأعمال النبوة — فقال صلى الله عليه وسلم من وصية له " عليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين عضوا عليها بالنواجذ "(١) فذكر مع سنته وأوصى الأمة بأن تعض عليها بالنواجذ —

ولكن واأسفاه . لم تبق الخلافة النبوية والهيئة الاجتماعية الاسلامية على هذا المنوال طويلا ، بل انتهت بأمير المؤمنين على عليه السلام ، فعم الانتشار والتفتت جميع شئون الأمة فتزلزلت بناية الأمة الاجتماعية وسقطت جدرانها فهى خاوية على عروشها ، وانتقض النظام الشرعى وتبعثرت سائر القوى بعد أن كانت كتلة واحدة مجتمعة على نقطة واحدة ، وتفرقت المناصب والوظائف على أناس كثيرين بعد أن كانت

---

١ — رواه أحمد وأبو داود والترمذى وابن ماجه من حديث العرباض بن سارية وقال الترمذى حديث حسن صحيح ، وأول المرفوع منه " أوصيكم بتقوى الله ".

فى يد واحدة — فمن ثم انفصلت الحكومة والسياسة ، من الدين والشريعة ، وأصبحت الخلافة عارية من خصائصها الروحية ، ومجردة عن وظائفها المتضحة عن نهج النبوة فصارت ملكا عضوضا طبقا لقوله صلى الله عليه وسلم " الخلافة بعدى ثلاثون سنة ثم ملك " وقد تقدم واما وظائفها الدينية فانقسمت أيضا وقام بها أناس آخرون فحمل القضاء والاجتهاد الفقهاء والمجتهدون فاصبحوا فرقة ، وحمل وظيفة الارشاد وتربية الأرواح وتزكية النفوس الصوفية وصاروا فرقة ، مع أن هذه الوظائف كلها كانت فى بدء الأمر بيد الخليفة الاسلامى فكان قائما بها كلها خير قيام ، وكانت بيعته تغنى عن غيره — بيد أنه بعد الانتشار والتشتت أصبح ملكا محضا ، نائيا عن وظيفة الافتاء والقضاء ، بعيدا عن التعليم الروحى وتزكية النفوس ، فهرع الناس الى أصحاب الطرق والمتصوفة وأخذوا يبايعونهم " بيعة التوبة والارشاد " " على اصطلاحهم " فبعد أن كانت القوى والمناصب والوظائف مجتمعة فى شخص الخليفة فكان ملكا وفقيها ومرشدا وقاضيا وقائدا ومحتسبا ، تفرقت فى دور الفترات وأصبحت لا نظام لها ولا زمام ، بل كلما امتد الزمان ، زاد الداين بلة ، والخرق سعة ، حتى بلغ السيل الزبى ، وعمت البلوى ، فتعارضت القوى وتصادم بعضها ببعض ايما تصادم — هذه هى الداهية الدهياء التى دهمت الأمة الاسلامية فقضت عليها ، لا ما يتخبط فيه الناس من اختراع الأسباب والعلل لسقوط المسلمين تقليدا للأفرنج —

والحاصل أن الخلافة التى تلت الخلافة الراشدة — سواء اكانت قرشية أو غير قرشية كانت حكومة دنيوية محضة وملكا عضوضا بعيدة عن النيابة النبوية فى وظائفها السياسية والحكم (اللهم الا خلافة عمر بن عبدالعزيز رضى الله عنه) وهى لا تزال على هذه الطريقة الى الآن الا ما كان فى عهد السلطان عبدالحميد من الانقلاب وتأسيس الحكومة الدستورية فانه (١) مما لا ريب فيه عود محمود الى الخلافة الراشدة قليلا — لأن الشورى هى الشرط الأول والميزة الكبرى للحكومة الاسلامية الحق — اما فى غير هذا فلم تغير من أحوالها شيئا .

---

١ — المنار . ان الانقلاب الذى وقع فى آخر عهد عبدالحميد بالرغم منه وكان قاضيا على سلطته لم يكن شرعيا ولا وقع انتصارا للشرع وعودا اليه بل تقليدا للافرنج ، ومن أصوله أن يسلب من الخليفة السلطة المستقلة فى كل شىء ولكنه مع ذلك أدنى الى تمكين الامة من اقامة الحق والعدل ومراعاة الشرع من السلطة الاستبدادية التى كان يتمتع بها اذا كان امرأ ى

طاعة الخليفة والتزام الجماعة

============

بعد هذه التوطئة الضرورية للبحث نقول أن الشريعة الغراء فرضت على المسلمين طاعة الخليفة مالم يأمر بمعصية ، كما فرضت طاعة الله وطاعة رسوله ولا عجب ، فـإن نظام الشريعة الاجتماعي يقتضي ذلك وهو مطابق لناموس الفطرة تمام المطابقة - بل هو حلقة من سلسلة هذا الناموس الآلهي الذي يخضع له كل ما في السموات والأرض ، وذلك لانا نرى كل شيء من هذا الكون البديع على نظام طبعي مخصوص وهو الذي يسمونه " بناموس المركزية " أو " بناموس الدوائر " ففي كل جهة من هذا الكون " مركز تحيط به الأجسام والذوات على شكل الدائرة وعلى هذا المركز تتوقف حياتها وبقاؤها ونماؤها فلو تحولت هذه الدائرة أو انحرفت عن طاعتها تتحصل حالا ويعتريها الخراب والدمار في طرفة عين - ومن هذه الحقيقة عبر بعض الصوفية بقوله " ان الحقيقة كالكرة " وعنها قال صاحب الفتوحات " بأنها دائرة قاب قوسين "

" ناموس المركزية " هذا نافذ في الكائنات كلها ، فما هذا النظام الشمسي الذي فوقنا ، وهذه السيارات الحائمة والنجوم المتلألئة ، والكرات النيرة المتبعثرة على بساط السماء ، وهذه الحياة العجيبة والحركة المدهشة للعقول ؟ ان هي الا مظاهر من مظاهر هذا الناموس - فالنجوم لها دوائر ، وكل دائرة منها قائمة على نقطة في الشمس ، حولها حركتها ودورانها ، وعليها حياتها وبقاؤها ، بهما قيامها ودوامها - وستبقى هكذا مادامت مرتبطة بمركزها ومنقادة له - (ذلك تقدير العزيز العليم) وكذلك أرضنا حلقة من تلك الدائرة خاضعة لمركزها كل آن - فكل من الأرض والسموات يدور في محوره ويسبح في فلكه ويطيع مركزه ولا يخرج عن دائرته أبدا حسب قوله تعالى (وله أسلم من في السموات والأرض)(٢ / ٨٣) وقولـه (ألم تر أن الله يسجد له من في السموات ومن في الأرض والشمس والقمر والنجوم) الخ (١٩/٢٢) وقال (لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون)(٤١/٣٦)

مركزا للعبادات عليها مدارها ولضياعها ضياعها وبطلانها لقول النبي صلى الله عليه وسلم " فمن أقامها أقام الدين ، ومن تركها فقد هدم الدين " وفي حديث الترمذي " كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يرون شيئا من الأعمال تركه كفر غير الصلاة " وقد جعل الكعبة مركزا أرضيا لسائر الأمم والشعوب والبلاد فقال تعالى " جعل الله الكعبة البيت الحرام قياما للناس " ولهذا أوجب أن تتوجه الى هذا المركز دوائر الناس ووجوههم فقال (وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره) (١٤٥/٢)

ثم لما كان للأجسام والأشخاص والمعتقدات والأعمال مراكز ، وجب أن يكون للحياة الاجتماعية مركز ، فجعل الله لها مركزا ، وجعل الأمة حوله كالدائرة ، وأوجب عليها مرافقته وموافقته وطاعته ، فاذا نادى لبت ، واذا تحرك تحركت ، واذا وقف وقفت ، واذا نهض لنهضت بخيلها ورجلها وسائر قواها — وجعل عصيانه من الجاهلية التي لا مخرج منها الا بطاعته والرجوع اليه ، وقد سمى المسلمون هذا المركز — الاجتماعي " بالخليفة والامام " وفرض على المسلمين قاطبة أن يعينوه وينصروه ويطيعوه كما يطيعون الله ورسوله ، فقال تعالى " يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم ، فان تنازعتم في شئ فردوه الى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، ذلك خير وأحسن تأويلا " (٦٣/٤)

فصل

أولو الأمر

============

أمر الله سبحانه في هذه الآية بثلاث طاعات ، طاعة الله ، وطاعة الرسول ، وطاعة أولي الأمر ، وقد علمنا أن طاعة الله تكون بطاعة كتابه ، وطاعة الرسول بطاعة سنته القولية والفعلية ، فمن أولو الامر الذين أمرنا بطاعتهم ؟ لقد تضافرت الأدلة القطعية والبراهين النيرة على أن المراد بأولي الأمر " الخليفة والامام " الذي ينفذ أحكام الله وسنة رسول الله ، ويقوم بمصالح الأمة ويحكم ويستنبط الأحكام من الشريعة عند النوازل برأيه واجتهاده ، وانما ذهبنا الى هذا القول لوجوه :

١ ــ قاعدة " القرآن يفسر بعضه بعضا " فاذا رجعنا اليه نجد فى نفس هذه السورة قول الله تعالى (واذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ، ولـــو ردوه الى الرسول والى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم " (٤/٨٦).

ذكر الله سبحانه فى هذه الآية تلك الآونة التى كانت تروج فيها أخبار الأمـن والخوف ، والفتح والهزيمة ، فيسمعها الناس ، فيضطربون من أجلها اضطرابـــا شديدا ، وقد أشاع فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم بعض المنافقين مثل هـــذه الأخبار ، فهلع منها بعض ضعفة الايمان من المسلمين ، فأمرهم الله أن اذا سمعتم هذه الاشاعات ، فلا تأخذوها على علاتها ولا تصدقوها بل ردوها الى الرســـول والى " اولى الأمر " ليحققوها ويمحصوها ويستنبطوا منها ما يجب استنباطه ــ

فالحالة التى ذكرت فى الآية ، حالة الحرب والصلح والأمن والخوف ولا يخفـــى على أحد أن النظر فى هذه الحالة والاهتمام لها واتخاذ التدابير اللازمة لها مـن وظائف الأمراء والحكام ، لا من وظائف العلماء والفقهاء ، لأن المسئلة مسئلة نظـام البلاد ، وقيام الأمن ، ونشوب الحرب ، لا مسئلة الحلال والحرام التى ينظر فيهـا العلماء ، فاذن لا مناص من أن نسلم بأن المراد " بأولى الأمر " هم الذين بيدهم الحرب والصلح وتنظيم البلاد وسياسة العباد ، والذين من شأنهم أن يحققوا مثـل هذه الأخبار المؤثرة على السياسة العامة وما هم الا الأمراء والحكام (١).

---

١ ــ المنار ، هذا الوجه حجة على الكاتب لا له فان الرسول صلى الله عليه وسلـــم كان عند نزول الآية هو الامام الأعظم وصاحب الأمر فى السياسة وغيرها ولم يكـن معه أمراء ولا حكام فتعين أن يكون المراد بأولى الأمر أهل الشورى من زعماء الأمة وأهـل الرأى فيها اذ كان صلى الله عليه وسلم يأخذ برأيهم واستنباطهم فى أمر الأمن والخـــوف وسياسة الحرب وغيرها لقوله تعالى (وشاورهم فى الأمر) وهذا نص فى موضع النزاع

" اولى الامر " الحكام والولاه بالاية التى قبلها والتى ذكر فيها الامراء والحكام قـــد روى الطبرى بسند صحيح عن ميمون بن مهران وابى هريره وغيرهما " اولو الامـــر هم الامراء " وعد ابن حزم - الصحابة والتابعين الذين نقل عنهم هذا التفسير فبلغوا ثلاثه عشر رجـــلا ٠

نعم قد روى عن بعض الصحابة والتبعين ان المراد من اولى الامر العلماء فقـــال جابر بن عبدالله رضى الله عنه " انهم اهل العلم والخير " وقال مجاهد وعطاء وابـــو العاليه " انهم العلماء " ولكن لا تعارض بين التفسيرين ، وذلك ان الشريعـــة جعلت الحكومة والولاية مركزا لسائر شئون الامه الدينيه والسياسية والعلمية ولم تكـــن المناصب والوظائف قد انقسمت الى ذات الحين ، فأمير المؤمنين كما كان حاكما وسائســـا كذلك كان عالما وفقيها ايضا ٠ فالصحابة والتابعون الذين فسروا اولى الامر " بأهل العلـــم والخير " قد احسنوا التفسير ، اذ اثبتوا به ان امراء المسلمين يجب ان يكونـــوا من اهل العلم والخير ، لا ما فهمه المتأخرون من هذا القول بانهم قصدوا به تلك الفئـــة التى عرفت " بالعلماء والفقهاء " بعد انقراض ذلك العهد وانهدام نظام الجماعة الشرعـــى لان هذه الفئه لم تخطر على بال احد من الصحابة والتابعين فى الصدر الاول ، ومن هـــذا القبيل ما نقله ابن جرير ايضا عن عكرمه انه قال " أولو الامر هم ابوبكر وعمر " اى ان المراد من أولى الامر الخلفاء والائمه مثل ابى بكر وعمر رضى الله عنهما (٢)

وهذا التفسير مطابق لحالة البلاد الاجتماعية اذ ذاك ، لان بلاد الحجـــاز كانت فى الفوضى قبل الاسلام ولا سيما قريش مكه ، فانهم لم يكونوا يعرفون الامارة ولا ينقـــادون لاحد من الناس ، فجاءهم الاسلام " بنظام الجماعة " و " نظام الامارة " واوجـــب على كل الناس أن يطيعوا الامراء ويلتزموا الجماعة والى هذا ذهب الامام ←

١- ليس فى الاية التى قبلها ذكر للحكام والامراء وانما هى خطاب للامه بانه يجـــب على من اؤتمن منهم على شىء ان يؤديه الى اهله وعلى من حكم بين الناس بولاية عامـــه او خاصة او تحكيم من بعضهم ان يحكم بالعدل ٠

٢- ليس هذا معنى قوله بل معناه هم اهل الشورى عند الرسول صلى الله عليه وسلـــم كأبى بكر وعمر لانه كان يستشيرهما فى كل امر ٠

الشافعى رضى الله عنه كما نقل عنه العسقلانى فى الفتح حيث يقول " ورجح الشافعى الأول واحتج بأن قريشا كانوا لا يعرفون الامارة ولا ينقادون لأمير ، فأمروا بالطاعة لمن ولى الأمر " ولذلك قال صلى الله عليه وسلم " من أطاع أميرى فقد أطاعنى " (فتح البارى ١٩١/٨) (١) .

٥ — هذا هو قول أكبر فقيه قام فى الأمة الاسلامية ، الا وهو الامام محمد ابن اسماعيل البخارى رضى الله عنه ، فقد بوب فى كتاب الأحكام من صحيحه بابا على هذه الآية فقال " باب أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم " وروى تحته حديث أبى هريرة " من أطاع أميرى فقد أطاعنى " فأثبت بهذا أن أولى الأمر فى مذهبه أيضا هم الأمراء والأئمة لا الفقهاء والعلماء كما قال ابن حجر فى شرح هذا الحديث " فى هذا اشارة من المصنف الى ترجيح القول الصائر الى أن الآية نزلت فى طاعة الأمراء ، خلافا لمن قال نزلت فى العلماء " (فتح البارى ٩٩/١٣) (٢) .

٦ — أن أقدم التفاسير عهدا وأغزرها مادة تفسير ابن جرير الطبرى ، ومكانة صاحبه فى معرفة تفسير الصحابة والتابعين واستقصائه معلومة ، وهو قد رجح هذا القول بعد أن ذكر سائر الأقوال .

٧ — لايذهبن عن بالك أن الاقاويل الكثيرة فى تفسير القرآن انما جاءت من المتأخرين الذين سحرت ألبابهم الفلسفة اليونانية فى زمن كانت العجمية المعوجة اندست فى الفكر والنظر ، واستولت على العلوم والمعارف ، وتقهقرت العربية الصالحة وهجرت علوم السنة وعشق الناس "التعمق" فى كل شئ ، حتى فى العلوم الدينية ، ذلك التعمق الذى ورد فيه " هلك المتعمقون " .

---

(١) ان طاعة الائمة والأمراء واجبة فى المعروف باجماع المسلمين والنصوص فيها معروفة ومنها هذا الحديث الصحيح ولكن هذا ليس دليلا على تفسير الآية بما ذكر .

(٢) قد صرح الكاتب من قبل كغيره بأن المسألة خلافية فترجيح بعض كبار العلماء لأحد الوجوه التى يحتملها اللفظ ليس حجة على غيرهم وانما العبرة بقوة الدليل .

وأما السلف الصالح فلم تكن فى عصرهم منازعات ولا مشاجرات ولا قيل ولا قال بل كانوا يفهمون كتاب الله بملكتهم اللغوية ، بدون أن يتكلفوا أو يتعمقوا ، أو يجهدوا أفكارهم فى نحت المعانى البعيدة واختراع الاحتمالات الباردة ، فاذا سمعوا كلمة " أولى الأمر " التى نحن بصددها فهموا منها بلا أدنى تكلف معناهـا المتبادر الى الذهن ، مثل ما يفهم الأعراب والرعاع .

ولكن الدهر كان خبأ أمثال فخر الدين الرازى الذين لا ترضيهم هذه السماحة والسذاجة ، فجاؤا من بعدهم يخترعون لكل كلمة معانى عديدة واحتمالات كثـيرة ويظهرون بذلك براعتهم وجودة ذهنهم ، فلا تروعك أقاويل المتأخرين واختلافهم لأنهم انما اتخذوا العلم صنعة لهم ومباراة بينهم ، بل ان كنت تنشد الحق فعليك بالسنة النبوية الصحيحة والآثار الثابتة عن الصحابة والتابعين لهم باحسان ، فما وافقهمـا فخذوه وما خالفهما فاضرب به عرض الحائط — اذ صاحب القرآن صلى الله عليه وسلم أعلم به وكذلك أصحاب الذين شهد الله العليم بعلمهم وعملهم رضى الله عنهم ورضوا عنه (١)

ومالى لا أعجب من هؤلاء الناس الذين يعرضون عن السلف الصالح ولا يقيمون لهم وزنا فى تلك العلوم التى اخترعوها اختراعا ، لأجل أنهم لم يكونوا يعلمون أصـول الفقه وعلم الكلام اليونانى اللذين ما أنزل الله بهما من سلطان ، فلم لا يسلمـون لهم فى علم الكتاب الالهى ؟ أليس بعجيب أن يؤمنوا بأن القرآن نزل على محمـد العربى صلى الله عليه وسلم ثم يستشهدوا فى فهم معانيه بارسططاليس اليونانى ؟ نعم ان هذا لشئ عجاب .

وأما الذى حير الرازى وغيره فى فهم الآية فانما هو ذكر الطاعة لأولى الأمـر معطوفة على طاعة الله ورسوله — فقالوا كيف تكون طاعتهم مثل طاعـة الله ورسوله ؟ وأين الملوك والسلاطين من هذا المقام الرفيـع ؟ فاخترعوا لذلك معنى يوافق فلسفتهم ، وقالوا

---

١ — هذا الكلام حق ولكنه وضع هنا فى غير موضعه اذ ليست هذه المسألة ممـا خالف الخلف فيها السلف ولا مما أكثروا فيها الأقوال .

هم " العلماء والفقهاء"؟ (١) ولقد تعبوا سدى ، لأن المسئلة واضحة جلية لا تحتاج في حلها وظهورها الى التفلسف البارد ، وذلك لأن القرآن والسنة شريعة وقانون وماذا يجدى القانون اذا لم تكن وراءه قوة منفذة — فطاعة هذه القوة ، طاعة القانون نفسه وطاعة واضعه — ولا يخفى على أحد من الناس حتى السوقة والاعراب أن طاعة والى البلد طاعة للملك الذى أرسله وعينه ، وعصيانه ، عصيان للملك بلا ريب حتى ان الذى يحارب الشرطى فى عمله الرسمى يعد مخالفا للقانون وللقوة التى سنته — وانما تخبط الناس فى فهم الآية لأنهم لم يتأملوا النظام الشرعى الاجتماعى ، اذ أنهم لو امعنوا النظر فيه لما تحيروا هذا التحير ولعلموا حق العلم بأن لابد لقيام الشريعة وبقاء الأمة من قوة مركزية ، وماهى تلك القوة الا (٢) الخليفة والامام والأمراء ونوابه ولو أنهم فعلوا ذلك لما خفى عليهم معنى " أولى الأمر"

وقد علمنا أيضا من آية " فان تنازعتم " الخ أن بين الخليفة الاسلامى والبابا المسيحى بونا شاسعا اذ البابا ليس بيده الخلافة الأرضية بل هو صاحب السلطة فى ملكوت السماء ، وقد عد الاسلام هذه العقيدة كفرا وشركا ، قال تعالى " اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله " وأما الخليفة الاسلامى فهو الحاكم والسلطان فى الأرض فقط ، يذود عن حوض الأمة وينفذ أحكام الشريعة ولايملك أدنى سلطة فى السماء ، ولا بيده القوة التشريعية ، فهو لا يستطيع أن يغير من الشريعة شيئا ، ولا أن يزيد فيها أو ينقص ، بل عليه أيضا مثل سائر آحاد الأمة أن يخضع لها خضوعا تاما ، واذا تنازع فى شيء مع المسلمين فلا حق له بأن يحملهم على حكمه ورأيه الخاص ، بل يجب عليه وعليهم جميعا أن يرجعوا الى كتاب الله وسنة رسول الله ، فيحكموهما بينهم ويسلموا لهما تسليما ، قال الله تعالى

---

١ — قد نقل الكاتب هذا القول عن بعض السلف وجمع بينه وبين القول الأول الذى اختاره وأطال فيه فعزوه الى الرازى خطأ وهبه صوابا فلماذا أنحى عليه بهذه اللائمة فى قول سبقه اليه من ذكر من السلف ؟ على أن الرازى على تفلسفه وكثرة غلطه قد اهتدى فى تفسير أولى الأمر الى الصواب فى الجملة كما بيناه فى تفسير الآية فى موضعها من التفسير .

٢ — الحق أنهم عرفوا ما رماهم بجهله كما تقدم .

" فان تنازعتم فى شىء فردوه الى الله والى الرسول " ففى هذه الحالة لا حكم للخليفة ، وانما الحكم لله وللرسول ، وكذلك طاعته طاعة الله ولرسوله ، ولاجل هذا كرر الفعل فى الآية فقال " أطيعوا الله وأطيعوا الرسول " ولم يكرره فى " أولى الأمر " ليعلم أن طاعتهما مطلوبة أصلا وطاعة أولى الأمر ليست كذلك بل انما جعلت ليطاع الله ورسوله (قاله الطيبى فى الشرح) .

ولذلك لما أراد أمراء بنى أمية أن يحملوا المسلمين على طاعتهم فى المنكر والبدعة والظلم ، قائلين أليس الله أمركم أن تطيعونا فى قوله " وأولى الأمر منكم ؟ " رد عليهم بعض الأئمة من التابعين أحسن رد فقال أليس قد نزع عنكم بقوله " فان تنازعتم " ؟

والحاصل أن الله سبحانه فرض على الأمة الاسلامية بهذه طاعة الخليفة والامام ، اذ به قيام الجماعة وبقاء الهيئة الاجتماعية (*)

---

*) المنار ، من أراد الوقوف على ملخص أقوال السلف والخلف فى أولى الأمر وتحقيق الحق فيها وفهم الآية حق الفهم ومعرفة مصلحة المسلمين فى ذلك اليوم فليراجع تفسيرها فى الجزء الرابع من تفسيرنا من صفحة ١٨٠ — ٢٢٢ .

فصـــــــــل

شـرح حديث الحارث الأشعـــــرى

==========

أما طاعة الخليفة فى السنة ، فقد تضافرت الأحاديث الصحيحة فى وجوبها واشتهرت اشتهارا عظيما حتى انه لم يصل حكم بعد عقيدة التوحيد والرسالة الى هذه الشهـــرة والتواتر —

وها أنا ذا ذاكر ههنا أولا حديثا من مسند الامام أحمد وسنن الترمذى يوضـــح نظام الاسلام الاجتماعى توضيحا حسنا ، فاقــول .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " أنا آمركم بخمس ، الله أمرنى بهن . الجماعة والسمع ، والطاعة ، والهجرة ، والجهاد فى سبيل الله — فانه من خرج من الجماعـــة قيد شبر فقد خلع ربقة الاسلام من عنقه الا أن يراجع — ومن دعا بدعوى جاهليـــــة فهو من جثى جهنم — قالوا يا رسول الله . وان صام وصلى ؟ قال وان صلى وصـــام وزعم أنه مسلم " أخرجه الترمذى وأحمد والحاكم من حديث الحارث الأشعرى على شـرط الصحيحين ، قال ابن كثير هذا حديث حسن وله شواهد .

فأمر النبى صلى الله عليه وسلم بخمس .

أولهن " الجماعة أى يجب على الأمة أن تجتمع على الامام وتعيش مرتبطة بمركزهـا الاجتماعى ، وسترى كثيرا من الأحاديث التى تحذر من الاختلاف والفرقة وتعدها حيـــاة جاهلية شيطانية ، اذ الاسلام لا يحسب الحياة الفردية حياة ، وانما الحياة عـــنده الحياة الاجتماعية "

وما " الجماعة " ؟ كتلة من الآحاد ، تربط بعضهم ببعض رابطة " الاتحـــــاد " و " الائتلاف " ويكون فيهم " الامتزاج " و " النظام "

هاتيكم الجماعة ولوازمها الأربعة . الاتحاد والائتلاف والامتزاج والنظام .

أما " الاتحاد " فهو أن يكون الأفراد متصلا بعضهم ببعض ، فلا عوامـــــل فرقة ، تفرقهم ولا التشتت يبددهم ، بل يكونوا جميعا متقاربين ، وأن تكـــــون

أعمالهم كذلك متوافقة غير متخالفة ، وجهتها واحدة وغايتها واحدة .

وأما " الائتلاف " فهو أخص من " الاتحاد " اذ الاتحاد مجرد الاتصال " والائتلاف " هو الاجتماع والاتصال بتناسب صحيح وترتيب حسن ، فيقدم فيه ما حقه أن يقدم ، ويؤخر فيه ما حقه أن يؤخر ، ويوضع الفرد في الجماعة بالمكان الذي يؤهله له استعداده وقوته ، فلا يستخدم في الشرطة من هو أهل للسيادة والقيادة ولا يرفع — الى رياسة السياسة — من لا يصلح الا للشرطية .

وأما " الامتزاج " فهو أخص منهما ، ويراعى فيه اتحاد الكيف أكثر من اتحاد الكم — أى ينظر في طبائع الأفراد حيث استعدادهم الاجتماعي ، فيلحق كل واحد بالذي يكون أكثر موافقة لطبعه ليتحدا تمام الاتحاد ، اذ لو لم يراع ذلك لا يتأتى الاتحاد بين أفراد مختلفة الأمزجة والطبائع ، كما لا يتحد الزيت والماء — وان الله سبحانه كما خلق العناصر ليتكون باجتماعها المناسب مركب مخصوص ، كذلك خلق الأفراد ليكونوا باجتماعهم " جماعة " فالأفراد " عناصر " والجماعة " مركب " ، وكما أن العناصر لا تكون " مركبا " الا اذا امتزجت امتزاجا تاما ، كذلك الأفراد لا تكون " جماعة " الا بهذا " الامتزاج " فاذن يجب أن يتمازج الأفراد بعضهم ببعض ويفنوا وجودهم في سبيل تكوين الجماعة بحيث يحسبهم من يراهم شيئا واحدا ، ولا يكون ذلك الا بعد الامتزاج التام .

وأما " النظام " فهو أن يحل كل فرد في الجماعة محله ، يدور في دائرته ويمضي في داخل حدوده ، ويعمل عمله الاجتماعي فيه .

ولا تتحقق هذه الأمور اذا لم تكن قوة مسيطرة على الاجتماع ، ويد مدبرة للجماعة ، فتوحد الآحاد المنتشرة وتؤلف بينهم وتمزج بعضهم ببعض وتنظمهم في نظام الجماعة — فلابد اذا من " امام وخليفة " ولا مفر للأفراد من طاعته والخضوع له اذا كانوا يريدون أن يحيوا حياة اجتماعية طيبة — فمقام الامام أو الخليفة في الهيئة الاجتماعية مقام النقطة من الدائرة ، وعماله بمنزلة الدائرة نفسها ، فآحاد الأمة يدورون حول هذه الدائرة ، وهى تدور حول تلك النقطة — وبهذه الصورة تتكون من اجتماع الأفراد " الجماعة " ويصبحون كتلة واحدة ...

اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد — وبهذا أمر المسلمون ومنعوا من الوحدة الفرقة وأوجب عليهم أن لا يعيشوا بدون امام ، سواء كثروا أو قلوا ، حتى لو كانوا ثلاثة وجب عليهم أن يؤمروا أحدهم لقوله صلى الله عليه وسلم " اذا كان ثلاثة في سفر فليؤمروا أحدهم " .

وقد جعل الله سبحانه صلاة الجماعة — التي هي عماد الدين ومثال كامل للعقائد والأعمال — نموذجا ليهتدى بها المسلمون الى تنظيم حياتهم الاجتماعية فانظر كيف يجتمع مئات الألوف وأوطانهم متنائية ، وجهاتهم متباعدة ، وألوانهم متغايرة ، وألسنتهم متخالفة ، فبينما هم في هذه الحالة ، اذ — تقرع سمعهم التكبيرة فيتحول الانتشار الى الاجتماع والتفرق الى الائتلاف ، فهم وقوف في صف واحد ، أجسامهم متلامسة ، أكتافهم متلاصقة ، أقدامهم متقاربة ، ووجوههم متوجهة الى جهة واحدة ، اذا كانوا قياما ، فكلهم قيام ، كأنهم بنيان مرصوص ، واذا كانوا قعودا فكلهم قعود ، باطنهم كظاهرهم متحد ومؤتلف ، قلوبهم بذكر واحد مشغولة ، وألسنتهم للفظ واحد مرددة ، ثم انظر أمامهم فلا ترى هنالك الا رجلا واحدا يؤمهم ويقودهم ، متى شاء أقامهم ، ومتى شاء أقعدهم ، كلهم طوع أمره وسماعون لكلمته ، لا يخالفونه ولا ينازعونه ، بل يتبعونه ويقتدون به ويطيعون له .(١)

هذه هي " الجماعة " التي يطالب بها الاسلام ، ويأمر المسلمين أن يجعلوا هيئتهم الاجتماعية على أسلوبها لا كما يزدحم الهمج في الأسواق .

هذا وكل ما ذكرناه من أوصاف الجماعة وخصائصها مأخوذة من الكتاب والسنة ، وقد أغفلنا ذكر الشواهد عمدا لضيق المقام وعدم الحاجة اليها .

٢ — ثانيهن " السمع " وهو أن تستمع الأمة أوامر الامام وتستهدى به فكلمة " السمع " توضح أن مقام الامام في الأمة مقام المعلم والمرشد — فعليها أن تتلقى أوامره بالقبول وتسترشد به في مهماتها .

---

١ — المنار : وظاهر أن هذا الاتباع يتقيد به الامام كالمأموم بنصوص الشرع فمشيئته فيه لاقامة المأمومين واقعادهم ليست مطلقة فاذا خرج عن الشرع فارقوه وأدبوه وكذلك الامام الأعظم وهو الخليفة وقد أشار الكاتب الى ذلك في الكلام على الطاعة .

٣) ثالثهن " الطاعة " وهى أن يطاع الامام طاعة تامة ، ويفوض اليه جميع القوى العاملة تفويضا كليا (١) ويعمل كل فرد من الأمة بأمره بدون أدنى عذر ولاضجر ومعلوم أن الطاعة فى المعروف لا فى المنكر .

٤ ــ رابعهن (الهجرة) وهى من " الهجر " ومعناه " الترك " ففى المفردات " الهجر والهجران مفارقة الانسان غيره ، أما بالبدن أو باللسان أوبالقلب والمهاجرة مصارمة الغير ومتاركته " (صفحة ٥٥٨) وأما فى الشريعة فهى أن يترك رجل أو جماعة الملاذ الدنيوية والرغائب النفسية فى سبيل الحق والسعادة (٢) فمثلا اذا ترك أحد لغرض سام وقصد عال ماله وراحته وأهله وأقاربه وعشيرته وبيته ووطنه يسمى عمله هذا فى الشريعة " الهجرة الى الله والذهاب الى الله " وقد غلب استعمال " الهجرة " فى ترك الوطن ، لأن تركه يستلزم ترك المال والأهل والاصدقاء وكل ما يحب ويألف فى الوطن ــ ولذا أذا أطلقت يكون معناها ترك الوطن ، واذا أضيفت الى شئ يفهم معناها حسب الاضافة ، قال النبى صلى الله عليه وسلم " وانما لكل امرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته الى ما هاجر اليه (البخارى عن عمر رضى الله عنه) فالهجرة أنواع وأقسام تجدها مبينة فى الكتاب والسنة وليس هنا محل تفصيلها .

٥) خامسهن " الجهاد فى سبيل الله " وهو من " الجهد " ومعناه " استفراغ الوسع فى مدافعة العدو ظاهرا أو باطنا " (مفردات) فالجهاد هو السعى البليغ لدفع الأعداء والذود عن الأمة ، ويكون باللسان والمال والنفس ، فكل ما يبذله الرجل فى سبيل الله حسب الحاجة والضرورة فهو جهاد فى سبيل الله كما قال النبى صلى الله عليه وسلم " جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم " (رواه أحمد وأبو داود والنسائى وابن حبان عن أنس رضى الله عنه)

---

١ ــ المنار : الحق أن الخليفة مقيد فى الاسلام بمشاورة أهل الحل والعقد كما انه مقيد بالشرع ، فتفويضه ليس مطلقا .

٢ ــ الهجرة الشرعية هى ترك دار الكفر الى دار الاسلام وكذا كل مكان لا يستطيع فيه أن يقيم دينه بحرية وليس هو المعنى الشرعى الأصلى ويحتجون له بحديث "والمهاجر من هجر السوء " وهو وصف للمهاجر الكامل كحديث "المسلم من سلم المسلمون من يده ولسانه " فان لم يهجر السوء لا يكون صادقا فى هجره وطنه لأجل الحق الذى يرضى الله تعالى كما يؤخذ من حديث النيـــة .

ولسنا فى حاجة الى أن نثبت أن على هذه الخمسة تتوقف الأمم وقيامها وبقاؤها اذ كل من له ذرة من العقل يعلم حق العلم أنه لا تستطيع أمة أن تفوز فى معترك الحياة بدونها ، أو تنجح فى أعمالها صغيرة كانت أو كبيرة بغيرها ، فسواء عليها أن تسعى لحصول خبز من البر ، أو تذهب لكشف القطب الشمالى ، فهى على كل حال تحتاج الى هذه الأصول الخمسة ، والتى تعوزها تخسر ثم تسقط حتما وان كل ما نراه الآن فى هذه المعمورة العظيمة من الحضارة والرقى والصناعة ، نتيجة لهذه الخمسة : الجماعة ، والسمع والطاعة والهجرة ، والجهاد .

ان النزاع والخلاف الذى ملأ الخافقين ، انما هو ناتج من شىء واحد ، وهو تعدد الأسماء لمسمى واحد ، وكثرة المصطلحات لحقيقة واحدة ، فانك ان دققت النظر فى جدال الناس ، ترى معظمهم متشاجرين فى الأسماء والألفاظ والمصطلحات مع أنهم لو جردوا الحقيقة عن الظواهر لعلموا أنها واحدة ، وعند الجميع سواء لكنهم لسوء الحظ لا يفعلون ذلك فيتخبطون طول عمرهم فى تيه الألفاظ والمصطلحات يتناطحون عليها .

وقد كثر مثل هذا النزاع فى العلوم والمعارف ، والموفق من لا تخدعه الظواهر فلا يرى الحقيقة بمنظاره الخاص المصنوع من الألفاظ والمصطلحات ، بل يراها مجردة كما هى — وهذا المقام مقام الرسوخ فى العلم ويسميه الشيخ أحمد ولى الله صاحب "حجة الله البالغة" "بعلم الجمع بين المختلفات" وعامة أصحاب السلوك والإشارات يسمونه "بمشهد الوحدة" ويقصدون به نفس هذا المقام الذى يطلبه السالك بعد زوال الحجب والاستار عن عينيه .

فاذا بحثت بعد هذا ، تعلم أن الجماعة والسمع والطاعة والهجرة والجهاد — من تلك الحقائق العامة المسلمة التى لا ينكرها أحد من البشر — والأمم بأجمعها — سائرة عليها من أول خلقها ومتمسكة بها أشد التمسك — وانما النزاع فيها والانكار عليها جاء من تلك البلية التى ذكرناها آنفا ، أى التعبث بالأسماء والمصطلحات لأجل هذا أنكرها كثير من الناس لأسمائها الاسلامية ، ولكنهم يقبلونها ويعملون

بها بغير هذه الأسماء . والذى يرد هذه الحقائق نفسها يحرم من الحياة ولا يرى فى دنياه الا الخيبة والخسران .

وها أنا ذا أسوقها اليك واحدة واحدة مع بيان وجيز لتفهم ما مر حق الفهم ، فانظر الى أولهن ، وهى "الجماعة" التى علمت معناها وخصائصها ، فقل أى شىء يتم بدون الجماعة والاجتماع ؟ دع ماقالت فيها الفلاسفة والحكماء فانه دقيق يخفى على كثير من الناس ، وألق عليها نظرة عامة ترى أن الغرض من الهيئات والاحزاب والجمعيات والمنتديات والمجالس والمحافل والبرلمان و بل من الأمة والوطن والجيش " الجماعة والتزام الجماعة " أيمكن لأحد أن يستغنى عن الجماعة ؟ حتى أن أولئك الذين يعيشون فى الغابات عراة متوحشين يضطرون الى الاجتماع اذا أهمهم أمر ، أو وقع فيهم شقاق ؟ يجتمعون للبحث فى شئونهم واصلاح ذات بينهم ، ولو تحت شجرة على التراب — فتلك " الجماعة " .

ولكن ماذا تغنى الجماعة اذا لم يوجد من يرأسها ويرشدها ؟ ولذا اذا اجتمع بضع رجال لأمر جامع بينهم ، تبادروا الى انتخاب الرئيس وقالوا اذا لم يرأس الجلسة أحد لا تكون قانونية ونظامية ، وكذلك اذا أرادوا تنظيم جيش قسموه فرقا من ألف ومائة وعشرة ، وجعلوا على كل منها رؤساء (أى تابعين لرئيس واحد وهو القائد العام) وقالوا بدون هذا لا يكون الجيش جيشا ، ولا يستطيع أن يعمل عملا ، فاذا كان قولهم هذا عن جماعة من عشرة أو خمسة ، فماذا يقال عن أمة مكونة من ألوف وملايين من الرجال والنساء أفلا تحتاج الى قائد يقودها ورئيس يرأسها ؟ وهل تقدر على عمل اجتماعى بدون الأمير ؟ ثم أى فائدة من الأمير اذا لم يطاع ؟ خذ لك أقرب مثال اليك وهو بيتك الذى تسكنه مع زوجتك وولدك — فان عصت الزوجة أمرك وتتمرد عليك أولادك ، أفلا تغضب عليهم وتقول والناس معك هذا بيت لا يفلح أهله أبدا ، لأنه لا نظام فيه ولا راحة ، بل هو مبتلى بحرب أهلية . وهل هذا الذى تقول غير " الجماعة " والسمع ، والطاعة " — ؟ فكما أن هذا البيت لا يفلح ، كذلك لا تفلح الأمة التى لا جماعة فيها ولا — سمع ولا طاعة " —

وأما " الهجرة " فينفر منها كثير من الناس ، لأنهم يحسبونها من بقايا ذلك العهد الذى كان فيه الانسان فى جهل ووحشية وهمجية ومصابا بالجنون الدينى — فكان يهلك نفسه ويقتل عواطفه ويترك راحته لأجل الدين — ولكنهم ينسون أن ما يفرون منه ، تدعو اليه البشر مدنيتهم أيضا ، وانك قد علمت معنى " الهجرة " وهو أن يؤثر الانسان المقاصد العليا الدنيا — وأن اضطر فى هذه السبيل الى هجران أهله وماله ووطنه وأمته وملاذه هجرها فرحا مطمئنا ، فقل أى نجاح يصادفه الانسان فى العلم والعمل ان لم يكن صدره مملوءا بهذه العاطفة العالية ؟ وما هذا التقدم المدنى والعلمى ، وماهذه الاختراعات العجيبة والاكتشافات المدهشة ، والأموال الكثيرة ، والتجارة الواسعة ، والمستعمرات العظيمة ، ووسائل المعيشة المتنوعة ، ورقى البلاد ، وعلو الأمم ، وسعة المدنية ؟ أليست نتائج " الهجرة " وثمراتها ؟ وذلك لأن الانسان — أفراده وجماعاته — لو لم يؤثر المقاصد العالية والعزائم الكبيرة على راحته وأهله ووطنه ولم يهجر كل شئ فى سبيلها لما رأينا اليوم ما نراه فى الدنيا ، بل لرأينا الجهل مقام العلم ، والوحشية مقام المدنية ، والخراب مقام العمران — وماقولك فى علم الطب وتقويم البلدان وعلم الحياة الانسانى ؟ أكان يمكن أن تصل هذه العلوم الى ما وصلت اليه ، لو لم يهاجر كثير من البشر فى سبيلها ، لأجل معرفة تفاصيلها واستقراء جزئياتها ؟ لو لم يهاجر كولمبوس لما علمنا عن نصف الدنيا شيئا ، ولو لم يهاجر الغربيون لما شاهدنا فى واشنطون ونيويورك المبانى الفخمة والقصور العالية ، ولو لم تهاجر الأمم الأوربية لما أصبحت أغنى الأمم — عجبا ، اذا رأوا المهاجرين زرافات ووحدانا يقصدون الى منطقة القطب الشمالى قالوا هؤلاء عظماء الرجال حقا كمل العلم فيهم ، وحلت الوطنية الصادقة فى قلوبهم ثم اذا علموا أنهم هلكوا على بكرة أبيهم دون أن ينالوا بغيتهم ، أقاموا عليهم المآتم ورثوهم وبكوا عليهم وقالوا مات النجباء ، ولكن اذا سمعوا الشريعة الالهية تسمى مثل هذا العمل " بالهجرة " وتدعو الناس اليه نفروا منه وانكروا واسودت وجوههم — تراهم يمجدون أولئك الرجال الذين هجروا أوطانهم لكشف منبع النيل وهلكوا فى مجاهيل أفريقية ، ولكن اذا علموا برجال

هاجروا فى سبيل الحق واعلاء كلمة الله ، ذموهم أشد الذم وسموهم " مجانيـــين وهمجا " ثم اذا رأوا نيوتن يهجر نومه ويسهر الليالى الطويلة ليحقق " نامـــوس الشغل " اعظموه وسموه بأسماء كريمة ، ولكن ان رأوا رجلا يجهد نفسه مثل نيوتـن لا لناموس الشغل بل لناموس نجاة العالم وسعادته وهدايته أنكروا عليه عمله وعـدوه من الوحوش . فما هذا الجنون ؟ وما هذا التناقض ياترى ؟ ترى اليوم الأمــــم الغربية تعتقد أن فلاحها وحياتها فى الاستعمار (كالونيل سستم) ـ وتتصـــادم وتتناطح ويهلك بعضها بعضا لأجل المستعمرات ـ ولكن ما الاستعمار ؟ أليـــس الغرض منه ترك الوطن والهجرة من أرض الى أخرى ، وتعميرها واستحصال الـثروة منها ، وتكثير غنى الأمة بها ؟ فما رأيك بعد هذا ؟ أليست الدنيا كلها متمسكة بنظام " الجماعة والسمع والطاعة والهجرة ؟ نعم هى متمسكة بها الا أنها لاتسميها بأسمائها الاسلاميـة !

وأما "الجهاد " فما أكثر استفظاع بعض الناس له ، وما أشد انكارهم عليه . اذا سمعوه جعلوا أصابعهم فى آذانهم واضطربوا منه اضطرابا شديدا ، وقالوا الاسـلام يستحل الدماء البريئة ، ويدعو البشر الى القساوة والبربرية ، والمجزرة الانسانيـة ، فهو دين وحشية وهمجية ـ ولكن ما أشد استماعهم لقول " دارون ورسل وويلـس" ان من الحقائق الثابتة " ناموس تنازع البقاء " " وناموس ـ انتخاب الطبيعـــة " " وناموس بقاء الأصلح " فاذا سمعوا هذه الكلمات أصغوا اليها هادئين ، ساكتـين ، وآمنوا بها مصدقين ، موقنين ، ولم ينزعجوا من هذه النواميس القتالة والداعيـة الـــى سفك الدماء ، بل قالوا انها كلها حق ، ومؤيدة بالبراهين القوية ، والمشاهد العينية ، لانا نرى الحياة كلها عراكا ومزاحمة ، الانسان وما دونه من الأحيـــاء كله يزاحم معارضه فى الحياة ويدافع غيره ويهلكه ويحل محله ، وهذا طبيعى ، ولا بقاء لحى بدونه . ثم اذا أخبرهم بأن النواميس التى يخضع لها سائر الموجـــودات يخضع لها الجنس البشرى ، وأن الأمة التى تثبت أنهـــا أصلح للقيام بالحـــق والهداية ، تعيش وتحيا ، والأمة الفاسدة وغير الصالحة تهلك وتفنى . وتحـــل محلها الأولى " ليظهره على الدين كله " لم يقبلوا هذا وتولوا عنه مدبرين ولـــو

يرجعوا الى رشدهم ليحكموا على أنفسهم ان الذى يريدونه باسم "الجهاد"(١) يقبلونه بأسماء أخرى ناقصة الدلالة على مسماها . والله يهدى من يشاء الى سواء السبيل .

فصـــــــل

الجماعة والتـزام الجمـــــاعـــــة

===========

وفى هذا الحديث الذى نحن بصدده أمر مهم يستحق أن نتأمل فيه ، وهو أن الشريعة نصت على أن الحياة الاسلامية انما هى فى التزام الجماعة وطاعة الخليفـــة ، والحياة الجاهلية فى الانحراف عنها — ولقد أوضح القرآن أن الجاهلية هى التفـرق والتشتت وانتشار الكلمة وعدم الاجتماع على مركز واحد ، وأن الحياة الاسلامية هـــى الحياة الاجتماعية والاتحاد والائتلاف بين الأمة واجتماع الآحاد المنتشرة — قال تعالـى (واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته اخوانـــا ، وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها) الخ .

فالجاهلية الفرقة ، والاسلام الجماعة ، ولذا أكد النبى عليه الصلاة والسلام مرة بعد مرة أن من يحيد عن الجماعة وينزع يده عن طاعة الخليفة ، يكاد يخرج من الاســلام ، وتكون ميتته على الجاهلية لا على الاسلام وان صلى وصام وزعم أنه مسلم .

وهاهى ذى بعض الاحاديث الصحيحة المشهورة فى هذا الباب .

قال صلى الله عليه وسلم " من أطاعنى فقد أطاع الله ، ومن أطاع أميرى فقد أطاعنـى ومن عصى أميرى فقد عصانى " رواه البخارى ومسلم عن أبى هريرة وفى رواية أخـــرى لمسلم " من أطاع الأمير " أى أطاع أمام المسلمين .

وقال " اسمعوا وأطيعوا وان استعمل عليكم عبد حبشى كان رأسه زبيبة " رواه البخارى ومسلم عن أنس .

---

١ — المنار . أوجز الكاتب واختصر فى بيان هذه المسألة وأسهب فيما عداها وأطنب . صـواب القول فى الجهاد الاسلامى أنه بذل الجهد فى حفظ الحق ودفع الباطل ، لتقرير المصالـح وازالة المفاسد ، وأما الجهاد العام غير المقيد بهداية الاسلام فهو بذل الجهد من كل حـى لحفظ حياته ومنافعه شخصا كان أو جماعة بالحق أو بالباطل ولكن قصروا فى بيان حقيقة الاسلام حتى لأهله وأعداؤهم جدوا وشمروا فى تصويره بضد حقيقته فنفروا منه حتى الكثير من اللابسيـن للباسه .

يظهر أن هذه الجملة كثيرا ما كان يكررها صلى الله عليه وسلم ولاسيما فــى خطبه ولذا تجدها مروية بألفاظ مختلفة ونسبت الى مواقع مختلفة ، وقد قال يوم الحج الأكبر في حجة الوداع التي كانت مشهدا عظيما للمسلمين ، والتي لم يعش صلـــى الله عليه وسلم بعدها الا بضعة أشهر " ولو استعمل عليكم عبد يقودكم بكتاب اللــه اسمعوا وأطيعوا " (مسلم) .

وقال " من خرج من الطاعة وفارق الجماعة فمات مات ميتة جاهلية " وفي لفــظ " فانه ليس أحد من الناس خرج من السلطان شبرا فمات عليه الا مات ميتة جاهلية " (متفق عليه) ومعلوم أن الجاهلية كانت قبل الاسلام ، فمعنى الحديث أنه مــات على ضلالة عرب الجاهلية — والعياذ بالله . وفي رواية عبد الله بن عمر رضي اللــه عنه " من خلع يدا من طاعة لقي الله يوم القيامة ولا حجة له ، ومن مات وليس فــي عنقه بيعة مات ميتة جاهلية " .

وقال " من فارق الجماعة شبرا فكأنما خلع ربقة الاسلام من عنقه " (الترمــذي) وفي رواية أخرى " دخل النار " (أخرجها الحاكم على شرط الصحيحين .)

وقال " كانت بنو اسرائيل تسوسهم الأنبياء كلما هلك نبي خلفه نبي وانه لا نبي بعدي ، وسيكون خلفاء فيكثرون — قالوا فما تأمرنا ؟ قال : أوفوا ببيعة الأول فالأول ، ثم أعطوهم حقهم ، فان الله يسألهم عما استرعاهم " (متفق عليه .

وغير هذا كثير من الأحاديث التي لا تحصى ، وشواهد الاجماع ونصوص كتــب العقائد والفقه لسنا في حاجة اليها بعد الحديث .

فصـــــــل

فـــي شروط الامـامــة والخلافـــــة

اذا استقصيت نصوص الكتاب والسنة واجماع الأمة ، تعلم أن الشريعة الاسلاميــة اعتبرت الامامة والخلافة على شكلين متضادين ، واحد منهما أصلي ومطلوب ، والثانــي اضطراري .

وبيان هذا أن الشكل الأصلي المطلوب هو انتخاب الأمة خليفتها بحيث تجتمع آحادها وأهل الحل والعقد والرأي والبصيرة منها ، فيتباحثون ويتشاورون طبقا للآية (وأمرهم شورى بينهم) ثم ينتخبون الخليفة مراعين فيه شروط الخلافة الشرعية ومقاصدها الاساسية ، غير ناظرين الى الوجاهة الذاتية والجنسية النسبية (١) اذ الشريعة تعتبر في الانتخاب شورى الأمة ، لا جنسية الخليفة وعشيرته ونسبه — وقد تأسست الخلافة الراشدة على هذا الأساس الجمهوري ، فالخليفة الأول انتخبته الأمة مباشرة والخليفة الثاني انتخبه الخليفة الأول ورضى به (٢) أهل الحل والعقد من الأمة ، والخليفة الثالث انتخبه جماعة الشورى ، والرابع بايعته الجماعة بأسرها — فانتخاب هؤلاء الخلفاء الأربعة كان انتخابا شرعيا وجمهوريا ، ولم تراع فيه الجنسية والقبلية والعهد البتة ولو روعى فيه شئ من هذا القبيل لبقيت الخلافة في بيت الخليفة الأول ولم تخرج منه الى آخر الدهر ، ولكن لم يكن شئ من ذلك ، بل لم يدع الخليفة الثاني مجالا للأمة في أن تنتخب ابنه خليفة لأنه منع وأوصى بذلك وصية حين — احتضاره — رضى الله عنه وعنهم أجمعين .

فاذا كان الأمر على هذا المنهج الجمهوري واستطاعت الأمة انتخاب خليفتها فقد شرطت الشريعة فيه شروطا تراعى عند الانتخاب .

وأما الشكل الثاني وهو اذا تغلب متغلب بقوته وعصبيته على الخلافة ولم يترك مجالا للانتخاب فحينئذ ماذا يجب على الأمة اذا كان المتغلب غير أهل لها وظالما وفاقدا لشروطها ؟ فهل يجب عليها أن تخرج عليه وتقاتله ؟ أم يجب عليها أن تطيعه وتنقاد له وتؤدى اليه الزكاة وتقيم وراءه الجمعة والجماعة وتعمل تحت سيطرته سائر الاعمال التي لا تتم الا بوجود الخليفة والامام ؟

---

١ — أي لم يراع فيه الا شرف نسبها من بيوت قريش التي حصر الوصول الخلافة في جملتها بل يرجحون كفاءته من أي بيت منهم كان ويعللونه بعد بأنها لو جعلت وراثية في بيت معين لبقيت في بيت الخليفة الأول كما هو الشأن في بيوت الملوك الى عهدنا هذا وضرب له المثل بالخلفاء الراشدين .

٢ — بمعنى انه رشحه والأمة رضيته تابعته .

لما كانت هذه المسئلة أهم المسائل الحيوية ، وأساس حياة الأمة الاجتماعي لم تكن الشريعة لتغفل عنها وتترك الأمة بلا هداية ولا بصيرة فيها ولذا تجدها قد اهتمت بها أشد الاهتمام وبينتها ـ بيانا وافيا بعبارات واضحة ونصوص صريحة ومن أجل هذا لم يتردد الصحابة رضوان الله عليهم في تعيين خطتهم لما قامت الخلافة الأموية الاستبدادية بعد انقراض الخلافة الراشدة ، فعاملوهما معاملة واحدة كأنهم كانوا عينوهما من قبل ، وصارت تلك المعاملة سنة لمن بعدهم ، وأجمعت الأمة على استحسانها ، واتخذتها خطة اجتماعية لها ، نعم قد اختلف بعض الفرق الاسلامية في الشكل الاول للخلافة ، ولكن لم يختلف أحد منهم في الشكل الثاني لا قولا ولا عملا .(١)

وقد شرطت الشريعة في الشكل الأول الجمهوري شروطا بالغة في الكمال منتهاه وأوجبت على الأمة أن تنظر في الخليفة كل الأمور التي تلزم لهذا المنصب الرفيع ولهذه المسئولية العظيمة . وقد اشتهرت شروط الخلافة هذه اشتهارا عظيما حتى انك تجدها في عامة كتب العقائد والفقه التي يتداولها طلبة العلم في المدارس الدينية فترى فيها " ويشترط أن يكون الخليفة من أهل الولاية المطلقة الكاملة بأن يكون مسلما حرا ، ذكرا ، عاقلا ، بالغا ، سائسا بقوة رأيه ورويته ومعونة بأسه ، وشوكته قادرا بعلمه وعدالته وكفايته وشجاعته على تنفيذ الأحكام ، وحفظ حدود الاسلام وانصاف المظلوم من الظالم ، عند حدوث المظالم " الخ ـ راجع شرح المواقف والنسفي والتمهيد وشرح الفقه الأكبر للقاري وشرح المقاصد ـ ومن كتب المحدثين شرح عقيدة ابن عقيل وفتح الباري وشرح منظومة الآداب وخلاصة لابن مفلح ونيل الأوطار ونيل المرام الشوكاني والاقناع وشرحه وغيرها من الكتب .

---

١ ـ اطلاق النفي خطأ فالخلاف وقع قولا وعملا ذهب كثيرون الى مقاومة السلطة الجائرة وغير الشرعية ، وكثيرون الى طاعتها وسيأتي تحقيقه ، وما زالوا يستمدون لاسقاط خلافة الأمويين حتى أسقطوها وهي في ريق شبابها .

وأما شرط القرشية ففيه اختلف (١) وقد كان يقول به أكثر العلماء والفقهاء الـــى زمن الدولة العباسية وبعدها بيسير (سنة ٦٤٠ هـ سنة ١٢٤٣ م) لقوله صلى اللـــه عليه وسلم (ان هذا الأمر فى قريش) ولذا ذهبت الامامية الى أن الخليفة يجـــب أن يكون من أهل بيت النبى صلى الله عليه وسلم وتقول على القاعدة أن الخلافـــة لعلى عليه السلام ثم لائمة العترة • رضوان الله عليهم أجمعين — وذهبت الزيديـــة

---

١ — يظهر أن للكاتب — عفا الله عنه — ميلا الى اضعاف هذا الشرط الذى أجمـــع عليه أهل الصدر الأول قبل ظهور الشقاق فى الأمة وهم أهل الاجماع الصحيح دون غيرهم والأحاديث الصحيحة فيه كثيرة متفق عليها وقد ذكر حديثا واحدا منها لـم يقرنه بذكر من خرجه من رواة الصحيح وقد صرحت الكتب التى ذكرها كلها بشـرط القرشية ولما ذكروا أن الخوارج وبعض المعتزلة خالفوا سائر المسلمين فى اشـتراط القرشية ردوا عليها بأن الاجماع كان قد انعقد على ذلك من عهد الصحابـــة مستندا الى النص فلا عبرة بخلافه •

قال السعد التفتازانى فى شرح المقاصد • ويشترط أن يكــــون مسلمـــا عدلا حرا ذكرا مجتهدا — شجاعا ذا رأى وكفاية سميعا بصيرا ناطقا قرشيا فـــان لم يوجد من قريش من يستجمع الصفات المعتبرة ولى كنانى فان لم يوجد فرجل مـن بنى اسماعيل فان لم يوجد فرجل من العجم الخ (ص ٢٧١ ج ٢ طبع استانة)

وقال الحافظ فى شرح البخارى بعد ايراد الأحاديث فى حصر الامامة فى قريش المؤيدة لما رواه البخارى منها ما نصه •

" ويؤخذ منه أن الصحابة اتفقوا على افادة المفهوم للحصر خلافا لمن أنكر ذلك والى هـــذا ذهب جمهور أهل العلم أن شرط الامام أن يكون قرشيا " — ثم ذكر من قيده ببعض قريش كالشيعة ورأى الخوارج وبعض المعتزلة بعدم اشتراط القرشية وتعقبه بقوله (قال أبو بكر بن الطيب لم يعـرج المسلمون على هذا القول بعد ثبوت حديث الأئمة من قريش " وعمل المسلمين به قرنا بعد قـــرن وانعقد الاجماع على اعتبار ذلك قبل أن يقع الاختلاف (ص ١٠٨ ج ٢٩ طبعة الهند)

ثم ذكر الحافظ ما رواه أحمد عن عمر من ميله الى استخلاف ابى عبيدة وهو غير قريشى أو معـــاذ بن جبل وهو أنصارى وجمع بينه وبين نقلهم للاجماع باحتمال أن يكون رجع عن ذلك أو يكون الاجماع قد انعقد بعده • والصواب أن أبا بكر قد احتج على الانصار — وعمر يظاهره — بحديث حصـــر الائمة فى قريش فأذعنوا ولم يعارض فيه أحد منهم ولا من غيرهم فانعقد الاجماع من ذلك اليوم وكفـــى هذا اعلالا لرواية قول عمر انه كان يحب أن يستخلف أحد الرجلين • وهل يوجد شئ يـــرد به أثر آحادى أقوى من هذا الاجتماع وهذه النصوص المتفق عليها ؟ =

الى أن الخلافة فى بنى فاطمة كلهم ولا خصوصية فيها لائمة أهل البيت فالامامية تشترط فى الخليفة مع سائر الشروط المذكورة آنفا ، أن يكون من أهل البيت النبوى ، والزيدية توسع فيها وتقول كل بنى فاطمة أهل للخلافة وهم يستحقونها دون غيرهم .

ولا تنسين أن هذا الاختلاف فى الشكل الأول . أما فى الشكل الثانى — أى اذا لم تقدر الأمة على انتخاب الخليفة لتغلب المتغلبين — فلا خلاف فيه بين المسلمين لكثرة الأحاديث الصحيحة واجماع الصحابة وائمة أهل البيت فى هذا الباب ولذا ترى الأمة قد اتفقت كلمتها على أنه اذا استولى مسلم بقوته وشوكته وعصبيته على الخلافة وتمكن فيها وقامت حكومته وقوى أمره وجب على الامة أن تطيعه وتسمع له وتخضع لخلافته مثل مالو كان أصابها بحق ، ولا يجوز لأحد الخروج عليه والقيام على وجهه ، ومن يفعل ذلك يقاتله المسلمون ويعينون الخليفة عليه ، مهما كان الخارج ذا فضل وصلاح وأهلية لأنه مفارق للجماعة وخارج على السلطان (١)

= وذكر الحافظ قبل ذلك ما أورد على حديث " لا يزال هذا الأمر فى قريش ما بقى من الناس اثنان " على القول بأنه خبر محض من أنه تولى أمر المسلمين كثير من غير قريش وأجاب عنه أولا بأن تولى هؤلاء لم يمنع وجود أئمة من قريش فى اليمن والمغرب وغيرهما وأن بعض أولئك كان يدعى القرشية كبنى عبيد ثم قال " وأما سائر من ذكر ومن لم يذكر فهم من المتغلبين وحكمهم حكم البغاة فلا عبرة بهم (قال) وقال القرطبى هذا الحديث خبر عن المشروعية أى لا تنعقد الامامة الكبرى الا لقرشى مهما وجد منهم أحد . وكأنه جنح الى أنه خبر بمعنى الأمر وقد ورد الأمر بذلك فى حديث " قدموا قريشا ولا تقدموها " أخرجه البيهقى . وذكر له شواهد من الصحاح وغيرها (ص ٨١ج ٢٩ أيضا) .

(١ — حكاية الاجماع باطلة كما أشرنا اليه فى حاشية سابقة وان الحافظ ابن حجر قال انهم يعدون — المتغلبين على الخلافة من البغاة الخارجين على السلطة الاسلامية مزيد بيان لذلك .

هذا هو حكم الشريعة فى هذه الصورة ، وحكمته واضحة جلية ، وهى أن قيام الشريعة وبقاء الأمة يتوقف على الحكومة القوية ، اذ هى أساس للحياة الاجتماعية وقد جعلت لها الشريعة نظاما فى غاية من الكمال والجودة ، فخولت للأمة حق انتخاب الأمير وجعلت الشورى أساسا للانتخاب ، وشرطت — شروطا فى الأمير ولم تعتمد فى الامارة على امتيازات الجنس والعصبية والملوكية — بل جعلتها حرة وجمهورية محضة لا يشوبها الاستبداد والضغط ابدا ، ثم حذرت الناس من أن يتصدوا لها ويرشحوا أنفسهم لأجلها ، ويتنافسوا فيها ويتطلعوا اليها ، فيقاتلوا ويحاربوا عليها ويسفكوا الدماء فى سبيلها — وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يبايع الناس على هذا فيقول " لا ينازع الأمر أهله "(١) هذه كلمة صغيرة فى ظاهرها ، كبيرة فى ذاتها وكافية لابطال الحروب والمنازعات بأسرها ، وقد بوب البخارى فى صحيحه عليها بابا فقال " باب ما يكره من الحرص على الامارة " وروى فيه حديث أبى موسى الأشعرى قال ، قال النبى صلى الله عليه وسلم " أنا لا نولى هذا الأمر من سأله ولا من حرص عليه " وكان الغرض من هذا التحذير والمنع لأن الناس اذا لم يحرصوا عليها سهل للأمة إنتخاب الأصلح والأهل لها ،

هذا هو النظام الحقيقى الذى جعلته الشريعة للخلافة الاسلامية ولو بقى معمولا به لصلحت الدنيا كلها ولكن النبى صلى الله عليه وسلم كان يعلم إنه لا يدوم أكثر من ثلاثين سنة فبين للأمة ما يجب عليها عندما ينهدم ذلك ويحل محله الاستبداد والقهر ،

لنفحص المسئلة فحصا جيدا ، لنرى أية خطة أحسن عند تغلب المتغلبين على الخلافة ، فان هنا خطتين (احداهما) أن يقبل الاستبداد ويخضع له صيانة للجماعة وحفظا لنفوس الأمة وذودا عن البلاد الاسلامية من الأعداء وصونا لأوامر الشريعة من التعطيل وغيرها كثير من المصالح العامة ولا تنس أن هذه الحكومة وان كانت مستبدة قاهرة الا أنها اسلامية تغار على الدين وترفع شأن الامة فى نظر الأعداء ، نعم

---

١ — يتأمل كلمة أهله وما يراد بها شرعا هل يمكن أن يكون منها الظالمون المستبدون ؟

انه تنشأ عن هذا مفاسد كثيرة (١)

وأما الخطة الثانية فهى أن يقاتل المتغلب ويخرج عليه وترد الخلافة الى من هو أصلح لها منه ولكن اذا فعل ذلك جرت الدماء انهارا فى حروب تشيب من هولها الولدان ، واختلت المصالح العامة ، وتزلزلت الهيئة الاجتماعية ، وبطل الأمن وعمت الفوضى وتعطلت أوامر الشريعة وهدمت الجوامع ، ونهبت البيوت ، وخربت البلاد ، وانصبت على رأس الأمة المصائب ، وأصابها كل ما يصيب الأمم فى مثل هذه الحروب التى تثيرها الأهواء والشهوات . ومع هذا لا يعرف متى يستتب الأمن وتعود الراحة ؟ اذ كل صاحب عصبية وذى مطامع كبيرة ينهض قائلا : أنا أحق بالخلافة من صاحبها فعلى الناس أن — يبايعونى ويقاتلوا فى صفى وينصرونى على عدوى (٢) . فماذا تكون حال الأمة اذ ذاك ؟ ألا تكون كالريشة فى مهب العواصف تقلبها الرياح كيف ما شاءت ؟ أولا تصبح كسفينة فى بحر مضطرب لا ربان عليها ، تتقاذفها الأمواج يمنة ويسرة فتعلو تارة وتسفل أخرى ويخشى عليها الغرق كل آن ؟ ولا ينكر أن مع هذه المخاوف والأهوال يحتمل أن ترد الخلافة الى الأصلح لها ، فأى صورة أحق أن ترجحها الشريعة الغراء ؟ أتلك التى مصالح الأمة فيها مصونة مضمونة ، والمفاسد محتملة ؟ أم هذه التى يكون الخراب والدمار فيها محققا ، ورد الحق الى أهله محتملا ؟

كل من له أدنى حظ من العقل الصحيح لا يتردد فى الجواب بأن الصورة الأولى أحق أن تقبل ويعول عليها فى مثل هذه الحالات ، وقد فعلت الشريعة ذلك جريا على قاعدة " المنافع تجلب والمضار تدفع " واذا اختلطت المصالح والمفاسد تختار الشريعة طريقا أقل مضرة وأكثر مصلحة وترجح أهون الشرين ، اذ لو لم تفصل

---

١ — أكثر هذه المفاسد على جرثومتها أن الأمر يجرى على القوة لا على الشريعة وأى حاكم تخضع له الأمة خضوعا أعمى ثم يقف عند حدود الحق والعدل فلا يتعداها على علم ولا عن جهل .

٢ — الصواب أن هذا من لوازم الخضوع لكل قوى يتغلب اذ لو كان أصحاب هذه المطامع يعلمون أن الأمة انما تخضع للحق لا للقوة وانها لا تزال تقاتل المستبد الخارج حتى يهلك أو تهلك لما خرج عليها خارج ولا تغلب مستبد ظالم وكلام الاستاذ أبى الكلام هنا متعارض متدافع ويحصر ما فرضه من صور المسألة غير متعين الوقوع بل نادر ومقاومة الظلم والاستبداد وتغيير المنكر فرض لازم ، ولكن يراعى فى تنفيذه ارتكاب أخف الضررين عند التعارض . =

ذلك وفرضت على الأمة عدم الخضوع لأحد سوى جامع شروط الخلافة والمنتخب على الطريقة الجمهورية الصحيحة لقام كما قلنا كل من اتخذ الهه هواه لنيل الخلافة وقال هذا الخليفة ليس بأهل وأنا أحق منه وأجمع للشروط — ثم ماذا بعد ذلك؟ القتل والسلب واهراق الدماء وزهق النفوس وانهدام الهيئة الاجتماعية وتزعزع أركان الأمة • فمن كان يحافظ على — البلاد ويحكم بين العباد ويعاقب المجرمين ويحد السراق وقطاع الطريق ويأخذ الزكاة ويقيم الجمعة والعيدين ويدافع عن الثغور ويرابط على الحدود ؟

وأيم الله لو كان كذلك لتداعت الأمم الاكالة على المسلمين ولاحتلت بلادهم وخضدت شوكتهم واستعبدتهم وأذلتهم وفعلت بهم ما فعلت • فقبول خلافة المتغلب أحسن وأهون ، أم هذا الخراب والدمار الذى ليس فوقه خراب ولا دمار ؟ ولذا أمرت الشريعة بطاعة الخليفة المسلم مهما كان ظالما ومستبدا وكيفما كانت سيرته مالم يأمر بمعصية الله ، وما أقام الصلاة — والله تعالى أعلم بما يأمر وهو بصير بمصالح العباد *

فصـــل

(نصوص السنة واجماع الأمـــة)

=========

من يلقى نظرة سطحية على الأحاديث النبوية يرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يخبر بما سيكون فى المستقبل من انقلاب الحال وتغير الناس ، ويبين لكل حالة وكل دور علائم وآيات ، ويرسم للأمة خطة تناسب كل وقت وزمان • وان هذا لمن أكبر الأدلة على صدقه وصدق نبوته ، اذ كل ما أخبر به جاء كفلق الصبح ، وان كان الناس لا يصدقون بذلك فبأى دليل يثبتون ما جرى فى الزمان الغابر ، فكل أحد يستطيع أن ينكر حينئذ وجود الاسكندر المقدونى والدولة الرومانية ، بل نابليون وحرب واترلو •

---

* الكاتب فرض صورة للتعارض بين الحق والتغلب لا تطرد بل قلما تقع وجعلها قاعدة للترجيح ، ان مجموع الأحاديث الواردة فى الامامة والامارة تدل على أمور يعز أن تجدها مجموعة فى مكان واحد فتجمع بها بين ما يتراءى لك فيها من التعارض =

قال : " لا ما أقاموا فيكم الصلاة ، الا من ولى عليه وال فرآه يأتى شيئا من معصية الله فليكره ما يأتى من معصية الله ولا ينزعن يدا من طاعة " (رواه أحمد ومسلم)

وعن حذيفة قال ، قال صلى الله عليه وسلم " يكون بعدى أئمة لا يهتدون بهديى ولا يستنون بسنتى ، وسيقوم فيكم رجال قلوبهم قلوب الشياطين فى جثمان انس قال ، قلت كيف يارسول الله ان أدركت ذلك ؟ قال " تسمع وتطيع وان ضرب ظهرك وأخذ مالك فاسمع وأطع " (أحمد ومسلم) .

وقال صلى الله عليه وسلم " ستكون بعدى أثرة وأمور تنكرونها — قالوا فما تأمرنا ؟ قال تؤدون الحق الذى عليكم وتسألون الله الذى لكم " (متفق عليه عن ابن مسعود وأخرجه أيضا الحارث بن وهب وأورده الحافظ فى التلخيص) .

وعن جابر بن عتيك مرفوعا عند أبى داود بلفظ " سيأتيكم ركب مبغضون فاذا أتوكم فرحبوا بهم وخلوا بينهم وبين ما يبتغون فان عدلوا فلانفسهم وأن ظلموا فعليهم "

وعن وائل بن حجر قال " سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ورجل يسأله فقال أرأيت أن كان علينا أمراء يمنعونا حقنا ويسألونا حقهم ؟ " اسمعوا وأطيعوا فانما عليهم ما حملوا وعليكم ما حملتم " (مسلم والترمذى وصححه) .

قال صلى الله عليه وسلم " على المرء المسلم ، السمع والطاعة فيما أحب وكره الا أن يؤمر بمعصية ، فان أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة " (أخرجه الشيخان وغيرهما عن ابن عمر) — اذ لا يعصى الله خالق السموات والأرض فى شئ مهما صغر وقل لمخلوق مهما كبر وعظم وارتفع شأنه — وان هذا ما قاله الاسلام وجميع الأديان وكل العقلاء والحكماء .

ولذا أمرت الشريعة بأداء الصدقات والزكاة الى العاملين عليها ، مهما كانوا ظلمة وفسقة وخونة ، ولا يجوز منعها عنهم لأجل ذلك — نعم يجوز السعى عند الامام فى عزلهم ولكن ماداموا على عملهم لا يجوز منع الزكاة عنهم لئلا يختل نظام الأمة — كما فى رواية بشير بن خصاصة أنه قال قلنا " ان قوما من أصحاب الصدقة قد يعتدون

علينا أفنكتم من أموالنا بقدر ما يعتدون علينا ؟ فقال " لا " (قال ابو داود رفعه عبد عن معمر) وفي رواية سعد ابن أبي وقاص قال " أدفعوا اليهم ما صلوا " وروى ابن أبي شيبة انه قال رجل لابن عمر ، الى من نؤدي الزكاة ؟ قال الى الأمراء ، فقال الرجل " اذا يتخذون بها ثيابا وطيبا " قال وان فعلوا ذلك اد اليهم الزكاة !

ولذا ترجم أصحاب الحديث " باب براءة رب المال بالدفع الى السلطان مع العدل والجور " (كما في المنتقى) وبه قال جمهور الفقهاء وأئمة أهل البيت • كما نقل عن الامام الباقر عليه السلام في الأصول والى هذا ذهب المحققون من الامامية والزيدية (١) •

---

(١) قال الحافظ في شرح حديث البخاري في المبايعة على السمع والطاعة الذي تقدم في الاصل عند قوله فيه من كتاب الفتن " وان لا ننازع الأمر أهله " أي الملك والامارة ثم ذكر زيادات في الحديث من روايات أخرى منها " وان نقوم بالحق حيث كنا لا نخاف في الله لومة لائم •

فتحي